

محمد الرسول البشر

توفيق الحكيم


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

محمد الرسول البشر

تأليف

توفيق الحكيم





محمد الرسول البشر

توفيق الحكيم



الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٩٢ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ...﴾

(قرآن كريم)


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

المقدمة

بيان

المألوف في كتب السيرة أن يكتبها الكاتب، ساردًا باسطًا، محللًا معقبًا، مدافعًا مفنِّدًا!

غير أني يوم فكرتُ في وضع هذا الكتاب قبل نشره عام ١٩٢٦م ألقيتُ على نفسي هذا السؤال: «إلى أي مدًى تستطيع تلك الطريقة المألوفة أن تُبرز لنا صورةً بعيدة — إلى حدٍّ ما — عن تدخُّل الكاتب؟ … صورة ما حدث بالفعل، وما قيل بالفعل دون زيادة أو إضافة، توحي إلينا بما يقصده الكاتب أو بما يرمي إليه؟»

عندئذٍ خطر لي أن أضع السيرة على هذا النحو الغريب. فعكفتُ على الكتب المعتمدة والأحاديث الموثوق بها، واستخلصتُ منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل. وحاولتُ — على قدر الطاقة — أن أضع كل ذلك في موضعه كما وقع في الأصل، وأن أجعل القارئ يتمثل كل ذلك؛ كأنه واقعٌ أمامه في الحاضر، غير مبيح لأي فاصل — حتى الفاصل الزمني — أن يقف حائلًا بين القارئ وبين الحوادث، وغير مجيز لنفسي التدخل بأي تعقيب أو تعليق، تاركًا الوقائع التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة.

كل ما صنعتُ هو الصب والصياغة في هذا الإطار الفنِّي البسيط؛ شأن الصائغ الحذر، الذي يريد أن يُبرز الجوهرة النفيسة في صفائها الخالص، فلا يخفيها بوشْي متكلف، ولا يغرقها بنقش مصنوع، ولا يتدخل إلا بما لا بد منه؛ لتثبيت أطرافها في إطارٍ رقيق لا يكاد يُرى.

هذا ما أردتُ أن أفعل.

فإذا اتَّضح للناس — بعد هذا العمل — أن الصورة عظيمة حقًّا؛ فإنما العظمة فيها منبعثة من ذات واقعها هي، لا من دفاع كاتبٍ متحمس، أو تفنيد مؤلِّفٍ متعصب.



الفصل الأول

المنظر الأول

(على أطمة بـ «يثرب» ... الوقت ليل.)

يهودي (يصرخ بأعلى صوته)**:** يا معشر يهود!

(جماعة من «يهود» يُقبلون، ويجتمعون إليه.)

الجماعة: ويلك! ... ما لك؟
اليهودي (يشير إلى السماء)**:** انظروا! ... انظروا!
الجماعة (يتطلعون إلى السماء)**:** ماذا؟
اليهودي (يشير إلى السماء)**:** طلع الليلةَ نجمُ «أحمد»!

المنظر الثاني

(«عبد المطلب» بجوار الكعبة.)

امرأة (تجري نحوه تصيح)**:** أبشر يا «عبد المطلب»! ... أبشر!
عبد المطلب: ماذا؟
المرأة: جاءت آمنة بولد، لا ككل الولْدان!
عبد المطلب: ولد؟
المرأة: لقد نظرَت — وهو يَخرجُ منها — أن قد خرج منها نور، رأت به قصورَ «بُصْرى» من أرض الشام!

عبد المطلب (في فرح)**:** إنها والله لَلرؤيا التي رأيتُ ... هلمِّي بنا!

المرأة: أيُّ رؤيا؟

عبد المطلب: ألم أرَ في منامي كأن سلسلةً من فضة خرجَت من ظهري لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب؛ ثم كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور؛ وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ويحمدونها؟!

المرأة: فَلْتُسمِّ المولود «محمدًا»!

عبد المطلب (في فرح)**:** نعم! ولألتمس له المَراضع!

المرأة: هلمَّ فانظر إليه!

(يذهبان مسرعَين.)

المنظر الثالث

(في سوق «عكاظ» ... «حليمة» مرضع «محمد» بين نسوة، وهي تحمله على صدرها، وعلى مقربة منها: أتانُها، وشاةٌ لها ...)

إحدى النسوة: مَن هذا الصبي؟

حليمة: هو يتيمٌ لا أب له ولا مال!

المرأة: إنا لنرجو أن يكون مباركًا.

حليمة: إنه لكذلك، ولقد رأينا بركته.

المرأة: كيف ذلك؟

حليمة: كنتُ لا أُروِي ابني من لبَني، فهو وابني الآن يَرويان، ولو كان معهما ثالثٌ لرَوِي! ... لقد أمرَتني أمه أن أسأل عنه!

المرأة: ها هنا في السوق عرَّاف من «هذيل» يُريه الناس صبيانهم.

حليمة: نعم! ... لأعْرضنَّه على عرَّاف «هذيل» وأسأله عنه!

المرأة (تشير إلى مكانٍ في السوق)**:** هلمِّي بنا إليه ... إنه جالس في مكانه.

(تنهض حليمة بمحمد، وتتجه إلى العراف.)

حليمة: أيها العراف! ... انظر إلى هذا الصبي وأخبرني عنه!

العراف (ينظر وجه محمد)**:** ابن مَن هذا؟

حليمة: هو يتيمٌ لا أب له!
العراف (يصيح)**:** يا معشر «هذيل»! ... يا معشر العرب!

(يجتمع إليه الناس من أهل الموسم.)

الناس: ما لك؟ ... ما لك؟
العراف: اقتلوا هذا الصبي!
حليمة (تنسلُّ بـ «محمد»)**:** وا ولداه!
الناس (يلتفتون، ولا يرَون شيئًا)**:** أيُّ صبي؟
العراف (يلتفت حوله باحثًا عن «حليمة»)**:** هذا الصبي! اقتلوه! ... اقتلوه!

(الناس لا يرَون شيئًا.)

المنظر الرابع

(صومعة «بحيرا» الراهب بـ «بصرى» من أرض الشام.)

بحيرا (ينظر من صومعته إلى رَكبٍ مقبلين)**:** هذا ركب تجار قريش ... عجبًا! ... ماذا أرى فيه؟ ... قد تغير هذا العام؟! ... كثيرًا ما يمرُّون بي فلا أرى ما أرى!

(ينهض إليه خادمه «نسطاس».)

نسطاس: ماذا ترى؟
بحيرا: انظر تلك الغمامة التي فوق القوم!
نسطاس (ينظر)**:** نعم! ... إنها تُظل غلامًا بين القوم!
بحيرا: هذه الغمامة لا تُظل إلا نبيًّا!
نسطاس: نبيًّا؟ ... أتُرى هو الذي حدثتَني عنه؟
بحيرا: أكبرُ ظنِّي ... لقد آن أوانه!
نسطاس (ينظر)**:** هذا الغلام.
بحيرا: فلنتبين الأمر! ... يا «نسطاس»! ... اصنع طعامًا للقوم!
نسطاس (يسرع إلى ما أُمر به)**:** نعم!

بحيرا (ينادي)**:** يا معشر قريش! ... إني قد صنعتُ لكم طعامًا، وأحب أن تحضروا كلكم؛ صغيركم وكبيركم، عبدكم وحركم!

أبو طالب (مِن بين القوم)**:** والله يا «بحيرا» إن لك لشأنًا اليوم! ... ما كنتَ تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيرًا، فما شأنك اليوم؟

بحيرا: صدقتَ ... قد كان ما تقول؛ ولكنكم ضيف، وقد أحببتُ أن أكرمكم، وأصنع لكم طعامًا فتأكلوا منه كلكم!

(يجتمعون إليه، ويتخلف الغلام محمد.)

أبو طالب (لبحيرا الذي ينظر في القوم باحثًا)**:** ما لك تنظر في القوم؟ ... عمَّن تبحث يا «بحيرا»؟

بحيرا: يا معشر قريش! ... لا يتخلفَن أحد منكم عن طعامي!

الجميع: يا «بحيرا» ما تخلَّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك، إلا غلامًا، هو أحدث القوم سنًّا، فتخلف في رِحالهم.

بحيرا: لا تفعلوا ... ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم!

رجلٌ من قريش: واللات والعزى إنه لَلؤمٌ بنا أن يتخلف ابن «عبد الله بن عبد المطلب» عن طعامٍ من بيننا!

(يقوم إليه فيحتضنه ويُجلسه مع القوم.)

بحيرا (يلحظ «محمدًا» لحظًا شديدًا)**:** ادنُ مني أحدثْك!

(ثم يقوم، وينتحي به ناحية، بعيدًا عن القوم.)

بحيرا (لـ «محمد» هامسًا)**:** يا غلام! ... أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتَني عمَّا أسألك عنه!

محمد: لا تسألْني باللات والعزى شيئًا ... فوالله ما أبغضتُ شيئًا قط بغضهما.[١]

[١] يُلاحَظ أن الكلام الذي على لسان النبي في هذا الكتاب هو كلامٌ تاريخي، وردَت نصوصه في كتبٍ معتمدة، هي على سبيل الحصر: سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلي، وطبقات ابن سعد، والإصابة لابن حجر، وأُسْد

بحيرا: فبالله إذَن، إلا ما أخبرتَني عمَّا أسألك عنه!

محمد: سَلْني عمَّا بدا لك.

بحيرا: أتحب العُزلة؟

محمد: نعم!

بحيرا: أتتأمل في السماء والنجوم؟

محمد: نعم!

بحيرا: أتلعب مع الغلمان كما يلعبون؟

محمد: كلا!

بحيرا: أترى في نومك رؤًى تصدُق في يقظتك؟

محمد: نعم!

بحيرا (يُقبل على «أبي طالب»)**:** يا «أبا طالب»! … يا «أبا طالب»!

أبو طالب (في دهشة)**:** ما شأنك يا «بحيرا»؟

بحيرا (مشيرًا إلى محمد)**:** خبِّرني، ما هذا الغلام منك؟

أبو طالب: ابني!

بحيرا: ما هو بابنك؛ وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا.

أبو طالب: إنه ابن أخي!

بحيرا: وما فعل أبوه؟

أبو طالب: مات وأمه حُبلى به!

بحيرا (في شبه همس)**:** صدقتَ … ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود؛ فوالله لئن رأَوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغُنَّه شرًّا؛ فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم، نجده في كتبنا وما رويناه عن آبائنا.

أبو طالب (متعجبًا)**:** شأنٌ عظيم لابن أخي هذا؟!

بحيرا: نعم … إن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي!

الغابة لابن الأثير، وتاريخ الطبري، وصحيح البخاري، وتيسير الوصول، والشمائل للترمذي وللبيجوري. وكذلك الوقائع الواردة في هذا الكتاب كلها صحيحةٌ مروية في الكتب السابق ذكرها. على أن ترتيب هذه الوقائع وتنسيقها لم يُتبع فيه النظام الزمني المعروف في كتب التاريخ؛ لِما هو مفهوم من أن هذا الكتاب ليس عملًا تاريخيًّا ولا علميًّا، وإنما هو عملٌ فني.

أبو طالب: نبي؟ … وما النبي؟
بحيرا: هو الذي يُوحَى إليه من السماء، فينبئ به أهل الأرض.

المنظر الخامس

(قبائل «قريش» مجتمعة عند الكعبة … أعرابي وراعٍ يرعى غنمه على مقربة منهم.)

الأعرابي (مشيرًا إلى المجتمعين)**:** مَن هؤلاء؟
الراعي: تلك قبائل قريش يختصمون.
الأعرابي: فيمَ يختصمون؟
الراعي: في بناء الكعبة … كل قبيلة تريد أن تضع حجَر الركن دون الأخرى.
الأعرابي: أرى واللات أنهم يتحاورون ويتحالفون ويُعدُّون للقتال.
الراعي: أجل … مررتُ بهم الساعة أسوق غنمي، فوجدتُ «بني عبد الدار» قد قرَّبَت جفنةً مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم و«بنو عدي» على الموت … وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم!
الأعرابي (يسرع بالانصراف)**:** هلمَّ بنا قبل أن يستفحل الخطْب.

(أبو أمية بن المغيرة ينهض في «قريش».)

أبو أمية: يا معشر قريش! … احقنوا دماءكم، واجعلوا بينكم — فيما تختلفون فيه — أوَّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه.
قريش: رضينا!
أبو أمية (يلتفت)**:** أرى غلامًا داخلًا!
قريش (صائحين)**:** هذا الأمين! … هذا «محمد»!
أبو أمية: أترضَون حكمه؟
قريش: نعم!
أبو أمية (صائحًا)**:** يا «محمد»! … تعلم أنا كنا قد أجمعْنا رأينا على بنيان الكعبة! … وأن القبائل جمعَت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم شيَّدْناها حتى بلغ البنيان موضع الركن كما ترى، فاختصمْنا فيه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى كاد ينشب بيننا القتال … وقد رأينا الآن أن نحتكم إليك في أمره، فاحكم بيننا بما ترى!

محمد: هلمَّ إليَّ ثوبًا!
أبو أمية: ائتوه بثوب.

(يُحضرون ثوبًا فيتناوله «محمد»، ويفرشه على الأرض، ويأخذ حجر الركن، فيضعه فيه بيده.)

محمد: لتأخذْ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا!
أبو أمية (معجبًا فرحًا)**:** مرحى! ... مرحى!

(يمر بهم شيخٌ غريب.)

الشيخ (صائحًا بهم)**:** يا معشر قريش! ... أرضيتم أن يضع هذا الركنَ وهو شرفكم، غلامٌ يتيم دون ذوي أسنانكم؟!
أبو أمية (في غضب)**:** من هذا الرجل؟
قريش: هذا شيخٌ من «نجد»!
أبو أمية: بل إنه الشيطان ... اغرب أيها الرجل ... لا شأن لك بما نحن فيه ... إن هذا الغلام اليتيم لخليق أن يجمع رأي العرب يومًا، وأن يوحِّد الناس.

المنظر السادس

(في دار «أبي طالب».)

أبو طالب (لمحمد)**:** يا ابن أخي! ... أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عيرُ قومك، وقد حضر خروجها إلى الشام! ... و«خديجة بنت خويلد» تبعث رجالًا من قومك في مالها، فلو جئتها فعرضتَ نفسك عليها لأسرعَت إليك.
محمد: ما أحببت!
أبو طالب (ينظر إلى الباب)**:** ها هو ذا غلامها ميسرة!
ميسرة (يدخل)**:** مولاتي قد أرسلَتني إلى «محمدٍ الأمين» تعرض عليه الخروج في تجارتها إلى الشام وتعطيه ضعف ما تعطي رجلًا من قومه.
أبو طالب (لميسرة)**:** وما حمَلها على ذلك؟!
ميسرة: قد سمعَت بأمانته وحُسن خُلقه!
أبو طالب (يلتفت إلى «محمدٍ» فرِحًا)**:** يا «محمد»! ... هذا رزقٌ قد ساقه الله إليك!

المنظر السابع

(في دار «خديجة بنت خويلد»، وهي مع «نفيسة بنت منبه» و«ميسرة».)

ميسرة (لخديجة)**:** لقد ربحَت تجارتك يا مولاتي ضِعف ما كانت تربح!

نفيسة: إنه الأمين! … أوَلم يدعوه بالأمين!

ميسرة: بل إنه النبي!

خديجة: نبي؟!

ميسرة: نعم … لقد باع سلعته فوقع بينه وبين رجلٍ تَلاحٍ، فقال له: احلف باللات والعزى. فقال «محمد»: ما حلفتُ بهما قط! … وإني لأمرُّ فأعرض عنهما. فقال الرجل: القول قولك. ثم همس لي: هذا والله نبي يجده أحبارنا منعوتًا في كتبهم.

خديجة (كالمخاطبة لنفسها)**:** نبي؟! … نعم … تحس نفسي ذلك!

نفيسة (لخديجة)**:** ماذا بك؟!

خديجة (متفكرة)**:** يا «نفيسة»!

نفيسة: لبيك!

خديجة: انطلقي إلى «محمد» فاذكريني له!

نفيسة (في عجب)**:** أنتِ؟ … إنكِ أوسط «قريشٍ» نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالًا … إن كل قومك حريص على زواجك لو قدر على ذلك … وقد طلبك أكابر «قريش» وبذلوا لك الأموال فلم تفعلي.

خديجة: انطلقي إلى «محمد» فاذكريني له!

المنظر الثامن

(عند «محمد».)

نفيسة (لمحمد)**:** يا «محمد»! … ما يمنعك أن تتزوج؟

محمد: ما بيَدي ما أتزوج به!

نفيسة: فإن كُفيتَ ذلك. ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف … ألا تجيب؟

محمد: فمن هي؟

نفيسة: «خديجة»!

محمد (في دهش): «خديجة بنت خويلد»؟!

نفيسة: نعم!

محمد (فرحًا): وكيف لي بذلك؟

نفيسة (في ابتسامة): عليَّ!

محمد (في فرحٍ وبلا تردُّد): فأنا أفعل!

الفصل الثاني

المنظر الأول

(«غار حراء» ... راعيان يرعيان ... الغنم على مقربة من الغار.)

الراعي الأول (لصاحبه مشيرًا إلى الغار)**:** أترى هذا الغار؟
الراعي الثاني (ينظر إلى حراء)**:** نعم!
الراعي الأول: لقد أبصرتُه كثيرًا يخلو به؛ فيتعبد فيه!
الراعي الثاني: وحده؟
الراعي الأول: نعم وحده!
الراعي الثاني (يلتفت إلى بطن الوادي)**:** انظر!
الراعي الأول: ماذا؟
الراعي الثاني: إنه مُقبل.
الراعي الأول (ينظر مليًّا)**:** نعم إنه متجه إلى الغار!
الراعي الثاني: إن معه زاده!
الراعي الأول: نعم ... إنه يتزوَّد لذلك!
الراعي الثاني: اختبئ كي لا يبصرنا!

(يختفيان في الوادي ... محمد يسير إلى الغار في صمت، ويضع زاده بمدخله، ثم يسجد طويلًا.)

محمد (ناظرًا إلى السماء)**:** ألم يأنِ لي أن أرى وجهك الذي أشرقَت له الظلمات؟
الراعي الأول (لصاحبه في همس)**:** أرأيت؟

الراعي الثاني: نعم!
الراعي الأول: إنه يلبث كذلك متحنِّثًا الليالي الطوال!
الراعي الثاني: ألا ينام؟!
الراعي الأول: لعله ينام، وهو في موضعه هذا!
الراعي الثاني: إن فعله ينفُذ إلى قلبي.
الراعي الأول: هلمَّ بنا!

(يذهبان.)

محمد: يا رب هذا الكون! ... يا خالق السموات! ... يا خالق الشمس والقمر والنجوم! ... يا خالق هذه الأرض وهذه الجبال! ... يا ربي وخالقي وخالق الكائنات! ... أريد وجهك! ... أريد وجهك!

(يرى ضوءًا غريبًا، ويسمع صوتًا عجيبًا، ويهبط عليه الوحي.)

الوحي: يا «محمد»!
محمد (يأخذه ذعر)**:** مَن هذا؟!
الوحي: يا «محمد» أنا «جبريل»!
محمد: ماذا أسمع؟! ماذا أسمع؟!
جبريل: أنا «جبريل» يا «محمد»!
محمد: جبريل؟!
جبريل (يدني كتابًا في نمطٍ من ديباج)**:** اقرأ!
محمد (يأخذه رعب)**:** ما أقرأ!
جبريل (يغتُّه بالكتاب)**:** اقرأ!
محمد (وقد بلغ منه الجهد)**:** ما أقرأ!
جبريل (يغته)**:** اقرأ!
محمد: ماذا أقرأ؟
جبريل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ❋ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ❋ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ❋ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ❋ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

المنظر الثاني

(في دار «محمد»، «خديجة» بقرب الباب، «محمد» يدخل على «خديجة» وبه رَوعٌ شديد.)

خديجة (تستقبله): أين كنت؟ ... لقد بعثتُ رسلي في طلبك حتى بلغوا «مكة» ورجعوا إليَّ!

محمد (مرتعدًا): زمِّلوني! ... زمِّلوني!

خديجة (في خوف): ماذا بك؟!

محمد: زمِّلوني! ... زمِّلوني!

خديجة (صائحة في الدار): الدثار، أسرعوا بالدثار!

محمد (يجلس): زمِّلوني!

(تأتي جارية بدثار، فتتناوله «خديجة» على عجل.)

خديجة (وهي تدثِّر «محمدًا» في قلق وارتياع): رحمةً بي خبِّرني بأمرك!

محمد (كالمخاطب لنفسه): ملَك من السماء!

خديجة: رحمةً وغَفرًا ... ماذا أسمع؟ ... ماذا تقول؟

محمد: إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداءً خلفي: يا «محمد»! ... يا «محمد»! ... فأنطلق هاربًا في الأرض ... واليوم ...

خديجة (في قلق): واليوم؟

محمد: ملكًا من السماء! ... رأيت اليوم ملكًا هبط عليَّ وكلمني وسمعتُ صوته!

خديجة (تصغي إليه مليًّا): ملكًا؟!

محمد (كالمخاطب لنفسه): قال لي: يا «محمد»، أنا «جبريل». وأقرأني من كتاب معه في نمط من ديباج!

خديجة: جبريل؟! ... (تطرق متعجبة مفكرة.)

محمد (كالمخاطب لنفسه): لقد خشيتُ على نفسي!

خديجة (ترفع رأسها): كلا! ... والله ما يخزيك الله أبدًا!

محمد: يا «خديجة»! ... والله ما أبغضتُ بُغضَ هذه الأصنام شيئًا قط، ولا الكهان!

خديجة: هوِّن عليك!

محمد (كالمخاطب لنفسه)**:** إني أرى ضوءًا، وأسمع صوتًا، وإني لأخشى أن أكون كاهنًا!

خديجة: كلا يا ابن عم ... لا تقُل ذلك! ... إن الله لا يفعل ذلك بك أبدًا! ... إنك لتصل الرحم، وتصدُق الحديث، وتؤدِّي الأمانة! ... وإن خُلقك لكريم!

محمد: إن بي خشيةً مما حدث لي!

خديجة: هلمَّ إلى ابن عمي «ورقة» نقصُّ عليه ما رأيتَ وسمعت؛ فهو نصراني قد قرأ الكتب، وسمع من أهل «التوراة» و«الإنجيل».

المنظر الثالث

(عند «ورقة بن نوفل» ... وهو شيخٌ كبير أعمى ... «محمد» و«خديجة» بين يدَيه.)

خديجة (لورقة وقد فرغ «محمد» من حديثه)**:** أسمعتَ من ابن أخيك؟

ورقة (مطرِقًا مفكِّرًا)**:** نعم!

خديجة: وماذا ترى؟

ورقة (يرفع رأسه في قوة)**:** قدُّوسٌ قدُّوس! ... والذي نفس «ورقة» بيده لقد جاءه «الناموس الأكبر» الذي كان يأتي «موسى»! ... (يلتفت صوْب محمد) ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك!

محمد (في عجب)**:** أوَمخرجيَّ هم؟

ورقة: لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي ... وإن يدركْني يومك أنصرْك نصرًا مؤزَّرًا.

المنظر الرابع

(«محمد» و«خديجة» في دارهما.)

خديجة (لمحمد)**:** يا ابن عم! ... أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟

محمد: نعم!

خديجة: فإذا جاءك فأخبرني به!

(يرى الضوء، ويسمع الصوت فيصيح.)

محمد: يا «خديجة»! ... ها هو ذا! ... ها هو ذا!

خديجة: «جبريل»؟

محمد (يهبط عليه الوحي، فيضطرب، ويتغير صوته)**:** نعم! «جبريل» قد جاءني ... (في همس واضطراب) إنه أمامي الآن.

خديجة (في شبه همس)**:** قم يا ابن عم؛ فاجلس على فخذي اليسرى!

(يجلس كما قالت.)

محمد (همسًا)**:** لماذا؟

خديجة (هامسة)**:** ستعلم ... هل تراه؟

محمد (ينظر إلى جبريل)**:** نعم!

خديجة: تحوَّلْ فاجلس على فخذي اليمنى!

(يفعل كما قالت.)

محمد (همسًا)**:** قد فعلتُ!

خديجة: هل تراه؟

محمد (ينظر إلى جبريل)**:** نعم!

خديجة: تحول واجلس في حجري!

محمد (مترددًا)**:** في حجرك؟!

خديجة: افعل ... هل تراه؟

محمد (يجلس ثم ينظر إلى جبريل)**:** نعم!

خديجة (تنحسر وتلقي خمارها)**:** هل تراه الآن؟

محمد (ينظر فلا يرى جبريل)**:** لا!

خديجة (صائحة في فرح)**:** يا ابن عم! ... اثبُت وأبشر! ... فوالله إنه لملَك، وما هو بشيطان؛ إذ لو كان شيطانًا لما استحيا.

(محمد ينهض من جوار خديجة وتعود هي إلى خمارها فيبدو جبريل من جديد ويدنو من محمد؛ فيرتعد، ويتصبب جبينه عرقًا!)

محمد (مرتجف الصوت)**:** خديجة!
خديجة (تراه، فتُهرع إليه)**:** ما لك يا ابن عم؟!
محمد: إني ...
خديجة (في قلق وخوف)**:** ما لك ترتعد، وما لجبينك يتفصد عرقًا؟
محمد: دثِّروني! ... دثِّروني!
خديجة (تدثره سريعًا، وتهمس)**:** هوِّن عليك!
جبريل (لمحمد، ولا يسمعه غير محمد)**:** ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

المنظر الخامس

(في شِعاب مكة ... محمد يصلي ومعه صبي صغير، هو ابن عمه علي بن أبي طالب ... الراعيان يبصرانهما عن كثب.)

الراعي الأول (لصاحبه)**:** لقد كان يتعبَّد وحده، فتبعه اليوم آخَر!
الراعي الثاني: هذا الذي يتبعه صبي حديث السن!
الراعي الأول: يُخيَّل إليَّ أن هذا الصبي قد خرج معه مستخفيًا من أهله!
الراعي الثاني (يلتفت)**:** انظر!
الراعي الأول (ينظر إلى حيث أشار صاحبه)**:** هذا «أبو طالب»!
الراعي الثاني: كأنه يبحث عن شيء!
الراعي الأول: لقد اتجه صوب المتعبِّدين.

(أبو طالب يعثر بمحمد وعلي، وهما يصلِّيان، فيتأملهما لحظة في صمت.)

أبو طالب (يدنو منهما)**:** يا محمد! ... ما تصنع هنا؟
محمد (وقد فوجئ)**:** أي عم! ... إني ...
أبو طالب: إنك تصلي وتتعبد!
محمد: نعم يا عم!
أبو طالب: خبِّرني يا ابن أخي! ... ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟

محمد: أي عم! … هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا «إبراهيم»؛ بعثني الله به رسولًا إلى العباد، وأنت — أيْ عم — أحق من بذلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهُدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه!

أبو طالب: أنا؟!

محمد: نعم!

أبو طالب: يا ابن أخي! … إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه … ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيتُ!

علي (يتقدم إلى أبيه)**:** أبتاه!

أبو طالب (يلتفت إلى علي)**:** وأنت يا بني! … ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

علي: يا أبتِ! … آمنتُ بالله، وبرسول الله، وصدقتُه بما جاء به، وصليتُ معه لله، واتبعتُه!

أبو طالب (متعجبًا)**:** أنت أيضًا؟!

علي: نعم يا أبت!

أبو طالب (يتفكر قليلًا)**:** أما إنه لم يدعُك إلا إلى خير فالزمْه!

المنظر السادس

(عند أبي بكر، وقد جلس إليه عثمان بن عفان.)

أبو بكر (لعثمان)**:** والله يا «عثمان» ما دعاني «محمد» إلى دينه حتى أجبتُ، ما نظرتُ فيه وما ترددتُ!

عثمان: إنك يا «أبا بكر» رجلٌ صادق، وإنا لنحبُّك ونألفك لعلمك وخلقك، ولا أحبَّ إلى نفسي من أن أتبع الدين الذي اتبعتَ.

أبو بكر: إنه دين الحق!

عثمان: إن الأمين لم يكذب قط!

أبو بكر: نعم … إن «محمدًا» لم يكذب قط!

عثمان: إن ما جاء به وما قصصتَ عليَّ قد أضاء قلبي بنورٍ كأنه نور الضحى!

أبو بكر: نعم! … إنه النور الذي يهدي السبيل؛ لقد دخل داري فأضاء قلوب أهله الصالحين جميعهم، حتى غلامي «بلال»!

عثمان: اللهم إني على هذا الدين!
أبو بكر (ينهض به مغتبطًا)**:** قم بنا إلى «محمد»!

المنظر السابع

(محمدٌ على جبل الصفا، بين يدَي جبريل.)

جبريل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(يرتفع عنه الوحي.)

محمد (كالمخاطب لنفسه)**:** سأصدع بما أُمِرتُ، سأصدع بما أُمِرتُ.

(ينهض.)

(يمر به أعرابي.)

الأعرابي: يا هذا! ... ما يُبقيك ها هنا وحدَك بعيدًا عن القوم؟!
محمد (لا يجيب، ويتجه إلى الناس مناديًا)**:** يا معشر قريش!

(يُقبلون، ويتجمعون إليه، وفي مقدمتهم عمُّه أبو لهب.)

أبو لهب: ما لك محمد؟
محمد: ادنوا مني أكلمكم!
قريش: تكلم!
محمد: أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدِّقوني؟
قريش: نعم! ... أنت عندنا غير متهم! وما جرَّبنا عليك كذبًا قط.
محمد: إذَن فاسمعوا!
قريش: قل!
محمد: إني نذير لكم بين يدَي عذابٍ شديد! ... يا «بني عبد المطلب»، يا «بني عبد مناف»، يا «بني زهرة»، يا «بني تميم»، يا «بني مخزوم»، يا بني «أسد»! ...

إن الله أمرني أن أُنذِر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا: «لا إله إلا الله.»

أبو لهب: تبًّا لك سائر هذا اليوم! ... ألهذا جمعتَنا؟

الناس (ساخرين)**:** ألهذا جمعتَنا؟!

أبو لهب: تفرقوا — أيها الناس — عن هذا المجنون الضال!

محمد: ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتُكم به؛ قد جئتُكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه؛ فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟ ... وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟

قريش (تبتعد عنه ساخرة)**:** لا أحد! ... لا أحد!

أعرابي: نعم ... لا أحد يؤازرك على هذا، حتى ولا كلب الحي!

علي (يتقدم ويصيح بصوته الصغير)**:** أنا يا رسول الله عونك! ... أنا حرب على من حاربتَ.

أعرابي (مشيرًا إلى علي)**:** أهذا كل جيشك يا «محمد»؟!

(يضحك ويضحك معه الناس.)

أبو لهب (للصبي علي)**:** تبًّا لك، ولمن اتبعتَ!

الأعرابي: تبًّا لهما من ضالَّين!

(تنصرف قريش مستهزئة بمحمد وبالصبي علي.)

(محمد يقف لحظةً مطرِقًا مدحورًا، وإلى جانبه عليٌّ دامع العينين.)

محمد (يرفع رأسه ويتلو في غيظ)**:** ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

المنظر الثامن

(رجال من أشراف قريش مجتمعون في الكعبة، وهم: أبو جهل، وأبو سفيان، وأمية بن خلف، وغيرهم ...)

أبو جهل: أسمعتُم بخبر هذا الدين الذي جاء به هذا الرجل؟

أمية (يشير إلى أصنام الكعبة)**:** محمد؟ ... إنه يبغض آلهتنا هؤلاء!

أبو سفيان: ولقد اتبعه بعض القوم، وإنهم ليستخْفون بصلاتهم في شعاب مكة.

أبو جهل: لقد علمتُ أن «محمدًا» قد اتبعه «أبو بكر» و«عثمان بن عفان» و«سعد بن أبي وقاص» وآخرون، وأن «سعدًا» استخفى البارحة في نفر من أصحاب «محمد» في شِعبٍ من شعاب «مكة»، فظهر عليهم نفر من قومنا وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب «سعد» رجلًا من قومنا بلحْي بعيرٍ فشجَّه.

أبو سفيان: إنها لفتنة يُحدِثها «محمد»!

أمية: بل هي بدعة يُحدِثها في العرب «بنو عبد مناف»!

أبو سفيان: لعلهم يريدون أن يظهروا ويذهبوا بها فضلًا على العرب كافة!

أبو جهل (صائحًا)**:** هذا لن يكون ... لقد تنازعْنا نحن و«بنو عبد مناف» الشرف، أطعموا فأطعمْنا، وحمَلوا فحملْنا، وأعطَوا فأعطَينا، حتى إذا تحاذَينا على الرَّكب، وكنا كفرسَي رهان؛ قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء! ... فمتى ندرك مثل هذه؟! ... كلا! واللات لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدِّقه.

أمية: نعم، واللات لا نؤمن به أبدًا!

أبو سفيان: هلمُّوا إلى «أبي طالب» نكلِّمه في أمر ابن أخيه، قبل أن يستفحل الخطْب!

أبو جهل: نعم، هلمُّوا بنا!

(ينهضون.)

المنظر التاسع

(في دار أبي طالب، وهو جالس مع أبي جهل وأبي سفيان وأمية ... إلخ)

أبو جهل: يا «أبا طالب» إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإن ابن أخيك قد عاب ديننا؛ فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه؛ فإنك على مِثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيك أمره!

أبو طالب: يا بَني قومي! ... يعظم عليَّ فراقكم وعداوتكم، غير أني لا أطيب نفسًا بإسلام ابن أخي لكم ... ولا خذلانه!

أبو سفيان: لي رأي، أتسمع مني؟

أبو طالب: قل يا «أبا سفيان»!

أبو سفيان: ما دمتَ لا تريد خذلان ابن أخيك، فهذا «عمارة بن الوليد» أنهدُ فتًى في قريش وأجملُه؛ فخُذه، فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلِم إلينا ابن أخيك، هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، فنقتله؛ فإنما هو رجل برجل!

أمية: نِعم الرأي.

قريش (كلهم في صوتٍ واحد)**:** نِعم الرأي! ... نِعم الرأي!

أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! ... أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا!

أبو جهل: والله يا «أبا طالب» لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا!

أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعتَ خذلاني ومُظاهَرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك!

أبو جهل (في غضب)**:** هلمُّوا بنا! ... هلمُّوا!

(ينصرف معه جماعة قريش ... ويبقى أبو طالب مُطرقًا مفكِّرًا محزونًا.)

محمد (يُقبل عليه)**:** عمَّاه! ... ما لك؟

أبو طالب (متغيرَ الصوت)**:** يا ابن أخي! ... إن قومك قد جاءوني في أمر هذا الدين الذي جئتَ به، وأجمعوا على فراقي وعداوتي؛ فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق!

محمد (في قوةٍ وعزم)**:** يا عم! ... والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه؛ ما تركتُه.

(لا يتمالك فيستعبر باكيًا.)

أبو طالب (يرقُّ له)**:** أتبكي؟

(محمد يذهب منصرفًا.)

أبو طالب (يناديه)**:** أقبِل يا ابن أخي!

محمد (يقبل)**:** أخاذلي أنت؟

أبو طالب (في عزمٍ وقوة)**:** كلا، اذهب يا ابن أخي فقُل ما أحببتَ؛ فوالله لا أُسلِمك لشيء أبدًا.

المنظر العاشر

(محمدٌ واقف على منازل القبائل من بني عامر في موسم الحج.)

محمد: يا «بني عامر»! ... إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبيِّن عن الله ما بعثني به!

(يأتي أبو لهب من خلفه.)

أبو لهب: يا «بني عامر»! ... إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلُخوا اللات والعزى من أعناقكم، وخلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة؛ فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه!

(غلامٌ من بين الناس المستمعين يسأل أباه هامسًا ...)

الغلام: مَن هذا الرجل يا أبتِ؟

والد الغلام (همسًا)**:** هذا فتًى من قريش يزعم أنه نبي!

الغلام: ومن هذا الذي يتبعه، ويرد عليه ما يقول؟!

والد الغلام: هذا عمُّه «عبد العزى، أبو لهب»!

ابن فراس (وهو أحد الناس، يقول لمن معه معجبًا بمحمد)**:** إن هذا الفتى يريد أن يحدث حدثًا في العرب!

أعرابي (في إعجاب)**:** نعم ... إنه لفتًى!

ابن فراس: نعم ... انظر إلى عينَيه وما يشعُّ فيهما من عزمٍ وقوة!

الأعرابي: إنه يتكلم كلام المستوثق من أمره المؤمن بما يقول!

ابن فراس (كالمخاطب نفسه، ناظرًا إلى محمد)**:** نعم ... والله، لو أني أخذتُ هذا الفتى من «قريش» لأكلتُ به العرب!

(يتقدَّم ابن فراس إلى محمد.)

الأعرابي (لابن فراس)**:** أين؟ ... أتذهب إليه؟

ابن فراس (صائحًا)**:** يا محمد! ... أرأيتَ إن نحن تابعْناك على أمرك، وأظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟!

محمد (يلتفت إلى ابن فراس)**:** الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء!

ابن فراس (في غضب)**:** حيث يشاء؟! ... أفنُهدِف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ ... كلا ... لا حاجة لنا بك ... انصرفوا عنه أيها الناس!

(ينصرف عن محمد مع الناس، ويبقى محمد وحيدًا حزينًا.)

المنظر الحادي عشر

(نفرٌ من قريش في حي من أحياء مكة بينهم الوليد بن المغيرة وأبو لهب ...)

الوليد: يا معشر قريش! ... إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدُم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمِعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا، فيكذِّب بعضكم بعضًا، ويردَّ قولكم بعضه بعضًا.

أبو لهب: فأنت يا «أبا عبد شمس»؛ فقل وأقِم لنا رأيًا نقلْ به!

الوليد: بل أنتم؛ فقولوا أسمعْ!

أبو لهب: نقول كاهن؟!

الوليد: لا واللات ما هو بكاهن ... لقد رأينا الكهان؛ فما هو بزمزمة الكاهن، ولا سجعه!

أبو لهب: نقول مجنون؟!

الوليد: ما هو بمجنون! ... لقد رأينا الجنون وعرفْناه؛ فما هو بخنقه، ولا تخالُجه، ولا وسوسته!

أبو لهب: نقول شاعر؟!

الوليد: ما هو بشاعر! ... لقد عرفْنا الشعر كله، رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه؛ فما هو بالشعر!

أبو لهب: نقول ساحر؟!

الوليد: ما هو بساحر! ... لقد رأينا السُّحَّار وسحْرَهم فما هو بنفْثهم، ولا عَقْدهم!

قريش (صائحين في حيرة)**:** فما نقول يا «أبا عبد شمس»؟

الوليد: واللات إن لقوله لحلاوة! ... وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِف أنه باطل ... وإن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر، جاء بقول، هو سحر يفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته!

المنظر الثاني عشر

(أشراف قريش مجتمعون في حجر الكعبة.)

أبو سفيان: أوَينزل الوحي على هذا الرجل وأُترَك وأنا كبير قريش وسيدها، ويُترَك «أبو مسعود» عمرو، سيد «ثقيف»؟

أبو جهل: أوَتصدِّق أنه ينزل عليه وحي يا «أبا سفيان»؟ إنه لساحرٌ فرَّق جماعتنا وسب آلهتنا!

أبو سفيان: لو أن عمه «أبا طالب» أسلمه إلينا! ... لكنه لا يريد أن يُسلِمه لشيء أبدًا!

عقبة بن أبي معيط: إن ذكره قد بلغ المدينة!

أبو جهل: وغدًا يبلغ ذكره بلاد العرب كلها.

أمية بن خلف: أعَلمتم أنه يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، يدعوهم إلى دينه؟

عقبة: نعم ... وإنه ليزعم لهم أن بعد الموت بعثًا وجنة يدخلها مَن تابعَه ... ونارًا يصلاها مَن خالَفه!

أبو جهل: إنك جالستَه وسمعتَ منه؛ لقد بلغني ذلك يا «عقبة»! ... وإن وجهي من وجهك حرام إن أنت جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو تأتِه فتتْفُل في وجهه!

عقبة: سأتفل في وجهه!

أبو سفيان (ينظر إلى الكعبة)**:** صه! هو مقبل!

أبو جهل (ينظر)**:** نعم، وخلفه صاحبه «أبو بكر»!

أمية (ينهض)**:** انظروا حتى أغمزه ببعض القول!

أبو جهل: افعل!

أمية (يلتقط من الأرض عظْمًا باليًا، وقد أرَمَّت، ويعترض محمدًا)**:** يا محمد! ... أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرمَّ؟!

(ثم يفتُّه بيده، ثم ينفخه في وجه النبي، فيمسح النبي عن وجهه ما أصابه، بينما تضحك قريش ضحكًا عاليًا.)

أبو بكر (في حزن، أصفر الوجه، خافت الصوت)**:** رحمتَك اللهم!

محمد (يلتفت إلى أمية)**:** نعم ... أنا أقول ذلك ... يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يُدخلك الله النار!

أمية (يدنو من محمد)**:** أتقول: يبعثني الله ربك بعدما أكون هكذا؟

محمد: نعم!

أمية (يضحك ملء فمه)**:** يبعثني بعدما أكون مثل هذه العظام التي أرمَّت؟!

محمد (يتلو)**:** ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ❋ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ❋ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

أمية (متخبثًا)**:** يا محمد! … هلمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر؛ فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذْنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنتَ قد أخذْتَ بحظِّك منه!

محمد (يتلو)**:** ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❋ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❋ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❋ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ❋ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❋ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

عقبة (يدنو من النبي)**:** نعم! … لنا ديننا وهو خير من دينك هذا!

(ثم يتفل في وجه النبي، فلا يحرك النبي ساكنًا، ويصفر وجهه.)

أبو بكر (همسًا وقد أخذَته رعدة)**:** اللهم عونَك!

محمد (يتلو)**:** ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

(ينصرف.)

أبو جهل (صائحًا)**:** أنتركه بعد أن عاب آلهتنا؟!

عقبة (في نفر من قريش ينهضون إلى النبي)**:** يا محمد! … أنت الذي تقول إن إلهك خير من آلهتنا؟

محمد (يلتفت إليه)**:** نعم أنا الذي أقول ذلك!

عقبة (للرجال)**:** لا تدَعوه!

(عقبة ونفر من قريش يقومون إلى محمد، ويأخذ كل رجل منهم بمجمع ردائه.)

أبو بكر (صائحًا مرتاعًا)**:** ماذا تريدون به؟ … ماذا تريدون به؟

عقبة (للرجال)**:** اقتلوه!

أبو بكر (يقوم دون النبي باكيًا)**:** أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟

(يفدي محمدًا بنفسه، فيمسكون به ويصدعون رأسه، ويجبذون لحيته.)

أبو سفيان (صائحًا)**:** دعوا «محمدًا»! ... هذا عمه «حمزة» متوشحًا قوسه، راجعًا من قنصه!

(الرجال يتركون محمدًا وأبا بكر يذهبان لشأنهما.)

أمية (يلتفت)**:** «حمزة» أعز رجال قريش! ... أين؟ ... (يبصر حمزة مُقبلًا) نعم ... إنه إذا رجع من قنصه، لا يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة!

أبو جهل: إنه ليس على دين ابن أخيه.

عقبة: أوَقد تبع هذا الفتى الضال إلا السفهاء والغلمان!

(يقبل حمزة عم النبي متوشحًا قوسه.)

امرأة (تعترض حمزة وتقول له همسًا)**:** يا أبا عمارة!

حمزة: ما لكِ؟

المرأة (هامسة)**:** لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك «محمد» من «أبي الحكَم» وأصحابه! ... رأوه ها هنا الساعة، فآذَوه وسبُّوه وبلغوا منه ما يكره، ثم انصرف عنهم «محمد» ولم يكلمهم!

حمزة (في عينَيه الغضب)**:** أفَعَلوا به هذا ... وأنا عمُّه؟!

(ثم يلتفت، فيرى القوم، فيتجه إليهم.)

أمية (همسًا لأصحابه)**:** إن «حمزة» مُقبل نحونا!

أبو جهل (في شيء من الرهبة)**:** أرى في عينيه ...

أمية: نعم! ... إنه البأس!

حمزة (في غضبٍ لأبي جهل)**:** ماذا لقي ابن أخي منك يا «أبا الحكم»؟

أبو جهل: إنك لغاضب؟!

حمزة: أتشتمه؟!

أبو جهل: وما يعنيك من أمره؟

حمزة (في صيحةٍ شديدة)**:** ما يعنيني من أمره؟! … أنا على دينه، أقول ما يقول، فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعتَ!

(ثم يرفع قوسه، ويضرب بها أبا جهل فيشجُّه شجةً منكَرة.)

عقبة (صائحًا)**:** أيها الرجال! … قوموا إليه! … قوموا إليه!

(نفر من قريش يقومون لنصرة أبي جهل.)

أبو جهل (لأصحابه في هدوء)**:** دعوا «أبا عمارة»! … فإنا واللات قد سببْنا ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

المنظر الثالث عشر

(محمدٌ جالس وحده في المسجد، وأشراف قريش مجتمعون عن كثب يتهامسون …)

قريش: ما الرأي في «محمد»؟ إن عمه «أبا طالب» يمنعه وينصره علينا!

عتبة بن ربيعة: أجل! … ولا قِبل لنا بـ «أبي طالب»!

أبو جهل: ما رأيت مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل! … إني لأخشى أن يتابعه بعض رءوس القوم، فيعز ويمتنع، ويفشو أمره بين القبائل.

أبو سفيان: ما أحسبه يا «أبا الحكم» إلا نائلًا منا إن تركْناه فيما هو فيه؛ فلقد أسلم بالأمس «حمزة»، وهو أعز فتًى في قريش!

قريش: وما الرأي؟

عتبة (تبدو له فكرة)**:** يا معشر «قريش» ألا أقوم إلى «محمد» فأكلمه وأعرض عليه أمورًا؛ لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟

قريش: بلى يا «أبا الوليد»! … قم إليه فكلمْه!

(يقوم عتبة إلى محمد ويجلس إليه.)

عتبة (للنبي)**:** يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمتَ؛ من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومك بأمرٍ عظيم؛ فرقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعِبتَ به آلهتهم، وكفَّرتَ به من مضى من آبائهم؛ فاسمع مني أعرضْ عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل مني بعضها!

محمد: قل يا «أبا الوليد» أسمعْ!

عتبة: يا ابن أخي! … إن كنت إنما تريد — بما جئتَ به من هذا الأمر — مالًا، جمعْنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تريد به شرفًا … سودناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا؛ ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الوحي الذي يأتيك رَئِيًّا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك؛ طلبْنا لك الطب، وبذلْنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه!

(يسكت عتبة وينظر إلى النبي.)

محمد: أقد فرغتَ يا «أبا الوليد»؟!

عتبة: نعم!

محمد: فاستمِع مني!

عتبة: أفعل!

محمد (يتلو)**:** بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❁ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ❁ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ❁ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ❁ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ❁ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

(عتبة يُنصت ويُلقي يدَيه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع …)

محمد (يمضي في التلاوة)**:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ❁ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ❁ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ❁ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ❁ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

(يسجد!)

(عتبة يُطرق مأخوذًا؛ كأنما على رأسه طائر واقع.)

محمد (يرفع رأسه، ويلتفت إلى عتبة)**:** قد سمعتَ يا «أبا الوليد» ما سمعتَ! ... فأنت وذاك!

عتبة (كالمخاطب لنفسه، وهو يقوم إلى أصحابه)**:** نعم! ... نعم!

أبو جهل (لقريش ناظرًا إلى عتبة، مقبلًا عليهم)**:** أحلِف لقد جاءكم «أبو الوليد» بغير الوجه الذي ذهب به!

(عتبة يأتي ويجلس إليهم ساكتًا.)

أبو جهل: ما وراءك يا «أبا الوليد»؟

عتبة (سابح الفكر)**:** ورائي!

أبو جهل: تكلم!

عتبة (في صوتٍ متغير)**:** ورائي أني سمعتُ قولًا ما سمعتُ مثله قط، واللات ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة! ... يا معشر «قريش»! ... أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه!

(قريش يعروها دهش، ويصمت الجميع.)

أبو جهل (ينتبه، ويرفع رأسه ملتفتًا إلى عتبة)**:** سحرَك واللات يا «أبا الوليد» بلسانه!

عتبة: «واللات ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأ!»
قريش: أهذا رأيك فيه؟!
عتبة: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم! … قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، لقد كان «محمد» فيكم غلامًا حدثًا، أكرمكم خلقًا، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغَيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به؛ قلتم كاذب وساحر، ومجنون!

(النضر بن الحارث يتقدم.)

النضر: بماذا جاءنا «محمد»؟ … واللات ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين! … دعوني أحدِّثكم بأخبار «رستم» و«إسفنديار» وملوك فارس، إنها يا «أبا الوليد» خيرٌ من قوله الذي سمعت منه.

(لا يأبه أحد به … صمت.)

أبو سفيان (بعد لحظة)**:** يا معشر «قريش»! … عندي رأي!
الجميع: ما هو يا «أبا سفيان»؟
أبو سفيان: فلنبعث أحدنا إلى أحبار «يهود» بالمدينة، يسألهم عن «محمد» وصفته؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء.

المنظر الرابع عشر

(في المدينة … عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بين أحبار اليهود.)

النضر (لحبرٍ كبير بين الأحبار)**:** إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟
الحبر: سلُوه عن شيء فإن أخبركم به فهو نبي مرسل!
النضر: ما هو؟
الحبر: سلوه عن الروح … ما هي؟
عقبة: فإن أخبرنا بذلك؟
الحبر: فاتبِعوه؛ فإنه نبي!

النضر: وإن لم يفعل؟
الحبر: فهو رجلٌ مُتقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم!

المنظر الخامس عشر

(في مكة ... قريش مجتمعة في حي من أحيائها، يُقبل النضر وعقبة.)

النضر: يا معشر قريش! ... قد جئناكم بفصْل ما بينكم وبين «محمد»!
أبو سفيان (من بين القوم)**:** ماذا؟
النضر: قد أخبرَنا أحبار يهود، أن نسأله عن شيء أمرونا به، فإن أخبركم عنه فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فرَوْا فيه رأيكم.
أبو جهل (يلتفت)**:** ها هو ذا «محمد» في طريقه إلى الكعبة!

(محمد يقبل ماشيًا في سكون.)

أبو سفيان (صائحًا)**:** يا «محمد»!
محمد (يلتفت)**:** ما تريد؟
أبو سفيان (ينهض ويعترض النبي)**:** إن كنتَ نبيًّا مرسَلًا، فأخبرْنا عمَّا نسألك عنه!

(محمد ينظر إليه في صمت!)

أبو سفيان (للنضر وعقبة)**:** سلاه عمَّا أُخبرْتما به!
النضر (يتقدم إلى النبي)**:** يا «محمد»! ... أخبرْنا عن الروح ... ما هي؟
محمد: الروح؟
النضر: نعم!
محمد (كالمخاطب نفسه)**:** الروح؟!
النضر وعقبة (معًا)**:** نعم ... نعم ... الروح!
محمد: أخبركم بما سألتم عنه غدًا.

(ثم يتركهم ... ويسير في سبيله مطرِقًا مفكرًا.)

المنظر السادس عشر

(في شعاب مكة ... النبي ساجدٌ عند غار حراء.)

(راعيان ينظران إليه عن كثب.)

الراعي الأول (هامسًا لصاحبه)**:** إنه يأتي كل يوم؛ فيسجد ويرفع يدَيه إلى السماء؛ كأنما هو يستنجد ويستعين، أكبر ظني أنه في بلاءٍ عظيم!

الراعي الثاني: أرى في وجهه حقًّا أنه محزون وأنه في بلاء!

(ينصرفان ويُقبل أبو بكر وخلفه بلال.)

بلال (همسًا لمولاه أبي بكر)**:** لقد أرجف أهل «مكة»، وقالوا: «وعدَنا «محمد» غدًا، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحْنا منها ولا يخبرنا بشيء»!

أبو بكر (في قلق)**:** قل لهم يا «بلال» أنِ اصبروا ... إن «محمدًا» لا بد موفٍ وعده!

بلال: لقد سمعتُ بعض الناس يزعم أَن الوحي انقطع عن النبي، وأن ربه قد نسيَه!

أبو بكر (في حزن، وهو ينظر إلى النبي الساجد عند الغار)**:** إن الله لا ينسى نبيَّه.

بلال (في حرارةٍ ناظرًا إلى النبي)**:** اللهم رحمتك!

أبو بكر (كالمخاطب لنفسه)**:** اللهم خفف عنه! ... إنه ليشق عليه ما يتكلم به أهل «مكة»!

(ينصرف مع بلال.)

محمد (وحيدًا في بلاء يستعين ربه)**:** أيْ رب! ... إليك أشكو بلائي ... أي رب ... ابعث إليَّ وحيك ... ابعث إليَّ وحيك! ... لقد سألوني عن الروح، ولا أعلم بمَ أجيب ... أي رب ... أنسيتني؟ ... اللهم إني لفي بلاء!

(يسمع صوتًا فيرفع رأسه فيرى جبريل فيمتلئ قلبه فرحًا ويصيح ...)

محمد: جبريل! ... جبريل!

جبريل: محمد!

محمد: جبريل! ... لقد احتبستَ عني يا «جبريل»، حتى سؤتُ ظنًّا!

جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

المنظر السابع عشر

(بعد غروب الشمس.)

(أشراف قريش عند ظهر الكعبة.)

أبو سفيان: أسمعتم ما أجاب به «محمد»؟! ... ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...﴾

أمية: نعم ... وهو يزعم أن ربه أنزل عليه «جبريل» بهذا!

أبو جهل: واللات، هذا القول ما هو بالجواب عمَّا سألْناه، ألا تَرون أنه قد عجز؟!

عتبة: يا «أبا الحكم»! ... أتسمع مني؟

أبو جهل: قل يا «أبا الوليد»!

عتبة: والله ما هو بعاجز، وما كذبكم في هذا شيئًا، إن الروح لا يمكن أن تكون من أمر بشر ... لقد صدَقكم، وما كان عليه — لو أنه نبي كاذب — أن يقول لكم في أمرها قولًا، أو يصف لكم وصفًا يسكتكم به؟!

أبو جهل: قلتُ لك يا «أبا الوليد»! ... إن وجهي من وجهك حرام، إن أنت قلت أمامه الساعة مثل هذا الكلام!

أمية بن خلف: أوَقد بعثتم إليه؟

أبو سفيان: نعم! ... قد بعثْنا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليكلموك!

أمية بن خلف: أجل! ... ابعثوا إليه فكلموه وخاصموه حتى تُعذَروا فيه!

أبو جهل: لن يستطيع اليوم أن يسحرنا بحديثه كما سحر «أبا الوليد»!

أبو سفيان (ينظر): إنه مقبِلٌ سريعًا!

أمية (ينظر): أرى في وجهه المستبشر أنه يظن أن قد بدا لنا فيه بداء؟

(محمد يحضر ويجلس إليهم مستبشرًا، طامعًا في إسلامهم.)

أبو سفيان (لأبي جهل)**:** كلمْه أنت يا «أبا الحكم»!

أبو جهل (لمحمد)**:** يا «محمد»! … إنا قد بعثْنا إليك لنكلمك، وإنا واللات ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلتَ على قومك، فإن كنت إنما جئتَ بهذا الحدَث، تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدُك علينا، وإن كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك، بذلْنا لك أموالنا في طلب الطب لك؛ حتى نبرئك منه أو نُعذَر فيك.

(يسكت وينظر إلى النبي.)

محمد: ما بي ما تقولون؛ ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم؛ ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغتُكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قريش (تتهامس)**:** إنه غير قابل!

أبو جهل: يا «محمد»! … إن كنت غير قابلٍ شيئًا مما عرضْناه عليك، فإنك تعلم أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشًا منا، فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال؛ التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا؛ فنسألهم عمَّا تقول … أحقٌّ هو أم باطل؟ … فإن صدَّقوك وصنعتَ ما سألناك صدَّقناك، وعرفْنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول!

محمد: ما بهذا بُعِثتُ إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسِلتُ به إليكم؛ فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله؛ حتى يحكم الله بيني وبينكم!

قريش (تتهامس)**:** إنه غير فاعل!

أبو جهل: فإذا لم تفعل لنا، فخُذ لنفسك؛ سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك!

أبو سفيان: وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة، يغنيك بها عمَّا نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، تقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه!

أمية: نعم! ... فليجعل لك قصورًا وكنوزًا، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولًا كما تزعم!

محمد: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعِثتُ إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا؛ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قريش (تتهامس): فليُرِنا ما يتوعَّد!

أبو جهل: نعم! ... أرنا ما تتوعد! ... أسقِط السماء علينا كسفًا كما زعمتَ؛ فإن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل!

محمد: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل!

أبو سفيان: يا محمد! ... أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عمَّا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب؛ فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم تقبل منك ما جئتنا به؟

أبو جهل: يا «محمد»! ... إنه قد بلغنا أنك إنما يعلِّمك هذا الذي جئت به، رجل باليمامة يقال له «الرحمن»! ... وإنا واللات لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك، إنا واللات، لا نتركك وما بلغتَ منا، حتى نهلكك أو تهلكنا!

أمية: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله!

أبو سفيان: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا!

(محمد يقوم عنهم يائسًا، ويقوم خلفه عبد الله بن أبي أمية.)

عبد الله: يا «محمد»! ... عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك عن الروح ما هي؟ ... فلم تأتِ بجوابٍ مفيد، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا؛ ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدِّقوك ويتَّبعوك؛ فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله؛ فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوِّفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبدًا؛ حتى تتخذ إلى السماء سلَّمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصكٍّ؛ معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول! ... وايم الله أن لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أصدِّقك!

(محمد ينصرف حزينًا آسفًا.)

أبو جهل: يا معشر قريش! ... إن «محمدًا» قد أبى إلا ما ترَون من عَيب ديننا وشَتم آلهتنا، وإني أعاهد اللات لأجلسن له غدًا بحجَرٍ ما أطيق حمله؛ فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه، فأسلِموني عند ذلك، أو امنعوني؛ فليصنع بعد ذلك «بنو عبد مناف» ما بدا لهم!

الجميع: واللات لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد!

المنظر الثامن عشر

(أبو طالب وقد حضره الموت!)

أبو طالب: شربة ماء!

(أخوه العباس على رأسه يسقيه.)

أبو طالب (يلتفت)**:** من هذا؟

العباس: أين؟

(أبو طالب يشير إلى الباب.) العباس (يتوجه إلى الباب ... ينظر، ثم يعود) هو ... «أبو جهل» في رجال من أشراف قومه، ما أحسبهم إلا يمشون إليك في أمر محمد ابن أخيك.

أبو طالب: أدخِلْهم عليَّ!

العباس (يدخلهم ويهمس لهم)**:** رويدًا! ... ترفقوا به!

أبو جهل (يدنو من الفراش)**:** يا «أبا طالب» إنك منا حيث قد علمتَ، وقد حضرك ما ترى وتخوَّفْنا عليك، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك ... فادعه فخُذ له منا، وخذ لنا منه؛ ليكفَّ عنا، ونكفَّ عنه وليدَعنا وديننا، وندَعه ودينه!

أبو طالب (لـ «العباس» في صوتٍ ضعيف)**:** «محمد»!

العباس (يلتفت إلى الباب)**:** هو مقبل!

(يدخل محمد.)

أبو طالب (لمحمد)**:** يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك!

محمد: نعم يا عم! ... كلمةٌ واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم!

أبو جهل: نعم ... وأبيكَ عشرُ كلمات!

محمد: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه!

(يصفق القوم بأيديهم استنكارًا.)

أبو جهل: أتريد يا «محمد» أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ ... إن أمرك لعجب!

أبو سفيان (نافدَ الصبر يتهيأ للانصراف مع بعض القوم)**:** والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم!

العاص بن وائل: نعم! ... دعوه ... فإنما هو رجل أبتَر لا عِقب له، لو قد مات لقد انقطع ذكره، واسترحتم منه.

(يتفرجون ويخرجون.)

أبو طالب (للنبي بعد خروج قريش)**:** والله يا ابن أخي ما رأيتُك سألتَهم شططًا.

محمد (ناظرًا إليه، طامعًا في إسلامه)**:** أي عم! ... فأنت فقلْها، أستحلُّ لك بها الشفاعة يوم القيامة.

أبو طالب: يا ابن أخي! ... والله لولا مخافة السُّبَّة عليك، وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن «قريش» أني إنما قلتُها جزَعًا من الموت لقلتُها ... لا أقولها إلا لأُسُرَّك بها.

(يقترب منه الموت.)

العباس: أخي!

أبو طالب (في صوتٍ ضعيف جامد النظرات)**:** من هذا؟

العباس: أين؟

(أبو طالب يغمض عينيه؛ ويحرك شفتيه ...)

العباس (ينحني عليه، ويصغي إليه بأذنه، ثم يهمس لمحمد)**:** يا ابن أخي! ... والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرتَه أن يقولها!

محمد (بلا حراك)**:** لم أسمع!

المنظر التاسع عشر

(بيت النبي في مكة.)

بلال (يدخل باكيًا)**:** وا حُزناه! ... وا ضَيعتاه!
جارية: ويحَك يا «بلال»! ... ما بك؟
بلال: قاتلهم الله!
الجارية: ما يبكيك يا «بلال»؟
بلال: قاتلهم الله!
الجارية: من هم؟
بلال: أغرَوا أحد سفهائهم، فاعترض رسول الله وحثا على رأسه التراب!
الجارية: التراب؟
بلال: نعم!
الجارية: «قريش»؟
بلال: نعم ... «قريش»، صنعَت هذا!
الجارية: نعم! ... اليوم؟
بلال: وا حُزناه عليك يا «أبا طالب»! ... من ذا يمنع اليوم النبي وينصره؟
الجارية: صه ودع البكاء عنك يا «بلال» لا تسمعك مولاتي ... إنها في فراشها اليوم تشكو!
بلال: تشكو؟ ... زوج النبي، «خديجة»؟!
الجارية (ترى فاطمة بنت النبي مقبلة)**:** صه!

(النبي يدخل والتراب على رأسه.)

بلال (همسًا)**:** رسولَ الله!
فاطمة (تلتفت إلى هيئة النبي وتصيح)**:** أبي! ... من صنع بك هذا؟!
محمد (في صوت المتعَب)**:** هوِّني عليك!
فاطمة: أهي قريش؟
محمد (كالمخاطب لنفسه)**:** نعم ... والله ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات «أبو طالب»!
فاطمة (تبكي)**:** أبتاه!

محمد (يلتفت إليها)**:** لا تبكي يا بُنيَّة؛ فإن الله مانعٌ أباك!

فاطمة: اجلس، وأغسل عنك هذا التراب!

المنظر العشرون

(أبو لهب وأبو سفيان يتقابلان ... في طريقٍ بمكة.)

أبو لهب: أعلمتَ يا «أبا سفيان»؟

أبو سفيان: ماذا؟

أبو لهب: «خديجة» في الموت!

أبو سفيان: زوج «محمد»؟

أبو لهب: أجل! ... عمَّا قليل تذهب أيضًا، تلك التي كانت تشُدُّ أزره وتُعزُّ شأنه!

أبو سفيان: عسى أن يلحق بها أولئك السفهاء الذين تابَعوه!

أبو لهب: لقد رأيتُ فيهم رأيًا!

أبو سفيان: ما هو؟

أبو لهب: إذا قدمَت العِير «مكة» وأتى أحدهم السوق ليشتري شيئًا من الطعام لعياله، سأقوم فأقول: يا معشر التجار! ... غالوا على «محمد» وأصحابه؛ حتى لا يدركوا معكم شيئًا؛ فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي؛ فأنا ضامن أن لا خَسارَ عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافًا، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغَوْن من الجوع، وليس في يدَيه شيء يطعمهم به.

المنظر الحادي والعشرون

(في دار النبي ... خديجة على فراش الموت وإلى جوارها محمد وهو مطرق في حزن ... محمد يسمع صوتًا فيرفع رأسه فيرى جبريل.)

محمد (لخديجة وهو ناظر إلى السماء)**:** يا «خديجة» ... هذا «جبريل»! ... يقرئك السلام من ربك!

خديجة (في صوتٍ ضعيف)**:** لله السلام، ومنه السلام وعلى جبريل السلام!

محمد (يثوب إلى نفسه ويلتفت إلى خديجة)**:** أُمِرتُ أن أبشركِ ببيت من قصب في الجنة؛ لا صخب فيه ولا نصَب!

خديجة: هل في الجنة قصب؟!
محمد: إنه قصب من لؤلؤ مُجْتبًى!

(صمت.)

خديجة: ما أشقَّ الفِراق!
محمد (مطرقًا)**:** سيكون اللقاء في الجنة إن شاء الله!
خديجة (في تنهُّدٍ عميق)**:** إن شاء الله!
محمد: تكرهين ما أرى منك يا «خديجة»، وقد يجعل الله في الكره خيرًا!
خديجة: خيرًا إن شاء الله!
محمد: أشعرتِ أن الله قد أعلمني أنه سيزوجني معك في الجنة «مريم ابنة عِمران»، و«كلثومَ أخت موسى»، و«آسية امرأة فرعون»؟!
خديجة: الله أعلمك بهذا يا رسول الله؟
محمد: نعم!
خديجة (في صوتٍ ضعيف)**:** بالرفاء والبنين!

(تلفظ الروح.)

محمد (جزعًا)**:** يا «خديجة»! ... يا «خديجة»!

المنظر الثاني والعشرون

(في بطحاء مكة وقد حميَت الظهيرة، رجال ونساء من أتباع محمد يُضرَبون، ويُعذَّبون، ويعلو صياحهم ...)

بلال (يمر بامرأة ويسألها)**:** لماذا يُصنَع بهم هذا؟!
المرأة (همسًا)**:** ليفتنوهم عن دينهم!
بلال: قريش فعلَت هذا اليوم؟
المرأة: نعم ... لقد عدَت قريش على من اتبع النبي، فوثبَت كل قبيلة على من فيها من أصحاب محمد المستضعفين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب كما ترى، وبالجوع والعطش، وقد اشتد الحر!
بلال: ويلٌ لهم! ... ويلٌ لهم!

المرأة (تلتفت إلى صوتٍ قادم)**:** صه! ... هذا «أمية بن خلف»!

(تنصرف المرأة سريعًا.)

بلال (لنفسه)**:** أمية! ... ويلٌ لي!
أمية (يرى بلالًا)**:** هذا أنت يا ابن الحبشية!
عقبة (وهو يسير إلى جانب أمية)**:** إنه من أتباع «محمد» المخلصين!
أمية (لرجالٍ معه)**:** اطرحوه على ظهره في هذه البطحاء!

(يطرحه الرجال في الرمضاء، تحت الشمس الحامية.)

بلال (صائحًا)**:** اتقوا غضَب الله! ... اتقوا غضَب الله
أمية (لرجاله مشيرًا إلى صخرةٍ كبيرة)**:** ضعوا على صدره هذه الصخرة العظيمة!

(بلالٌ لا ينبس، وهم يضعون على صدره الصخرة.)

أمية (لبلال وهو تحت الصخرة العظيمة في بلاء عظيم)**:** لا تزال هكذا؛ حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى!
بلال (ناظرًا إلى السماء وهو يتلوَّى من الألم)**:** أحدٌ، أحد!
ورقة بن نوفل (يمر ببلال ويهمس في أذنه)**:** أحد! ... أحد! ... والله يا «بلال»!
أمية: دع هذا العبد وشأنه يا «ورقة»!
ورقة (يُقبل على أمية)**:** أحلفُ بالله لئن قتلتموه على هذا؛ لأجعلن قبره كقبور الصالحين والشهداء!

(ينصرف.)

عقبة (لبلال)**:** لا تزال هكذا؛ حتى تترك دين «محمد» وتعبد آلهتنا!
بلال (صائحًا)**:** أحدٌ ... أحد!

(يأتي أبو بكر.)

أبو بكر (لأمية بن خلف)**:** ألا تتقي الله في هذا المسكين! ... حتى متى؟!
أمية: أنت الذي أفسدتَه؛ فأنقِذه مما ترى!
أبو بكر: أفعلُ ... عندي غلام أسود أجلَد منه وأقوى على دينك، أعطيكه به!

أمية: قد قبلتُ!

أبو بكر: هو لك، رُد عليَّ «بلال» أعتقه!

(يُطلقون له بلال فينصرف به.)

أمية (لرجاله)**:** فليظل أصحاب «محمد» هؤلاء في هذا العذاب!

(ينصرف هو وعقبة، يقبل النبي من طريقٍ أخرى ويمر بأصحابه.)

محمد (همسًا للمعذَّبين)**:** اصبروا واثبتوا!

أحد المعذَّبين (همسًا)**:** يا رسول الله، ألا نقاتلهم فندفع عن أنفسنا الأذى!

محمد: لم أومَر بالقتال!

أحد المعذبين: وهل نصبر طويلًا على هذا البلاء؟

محمد (همسًا)**:** لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكًا لا يُظلَم عنده أحد، وهي أرض صدق؛ حتى يجعل الله لكم فرَجًا مما أنتم فيه!

المنظر الثالث والعشرون

(جماعة من قريش بينهم عمر بن الخطاب، والشاعر لبيد، والوليد، وعقبة، وابن مظعون، يتسامرون ويحتسي بعضهم الخمر عند إسحاق الخمار.)

عقبة: أعلمتم الخبر؟ ... لقد هاجر كثير من أتباع «محمد» إلى الحبشة؛ هربًا مما هم فيه من البلاء!

عمر: نعم! ... قد علمْنا وسنرسل في أعقابهم بعضَنا إلى «النِّجاشي» كي يسلمهم إلينا!

عقبة: إن «محمدًا» لم يقدر على أن يمنع أصحابه مما هم فيه!

ابن مظعون: خسِئت!

عقبة: عجبًا لك يا «ابن مظعون»! ... ما الذي أقعدك عن الخروج إلى الحبشة مع من خرج؟!

الوليد: أنا أُجيره وأحميه؟!

عقبة: حقًّا، إنه آمنٌ في جوارك!

عمر: دعُونا من هذا الحديث! ... أنشِدنا شعرًا يا «لبيد»!

لبيد: أين الخمر؟

عمر (ينادي الخمار)**:** هاتِ خمرَك يا «إسحاق»!

ابن مظعون (يلتفت)**:** أرى في الظلام رحْلًا مقبلًا، عليه رجل وامرأة!

عقبة (ينظر)**:** إنهما ولا ريب من المهاجرين!

عمر (ينظر مليًّا)**:** ويْ! … هذا «عامر» و«أم عبد الله»!

(ينهض ويتجه إليهما.)

عامر (على الرحل يرى عمر مقبلًا)**:** ألمح أحد المشركين يدنو منا!

أم عبد الله (تلتفت)**:** هذا والله «ابن الخطاب»!

عمر (يقترب منهما)**:** إنه الانطلاق يا «أم عبد الله»؟

أم عبد الله: نعم … والله لنَخرُجن في أرض الله — لقد آذيتُمونا وقهرتمونا — حتى يجعل الله لنا مخرجًا!

عمر (في حزن ورقَّة)**:** صحبكم الله!

(ويُطرق لحظة، ثم يقفل راجعًا إلى مكانه.)

أم عبد الله (لعامر)**:** يا «أبا عبد الله»! … أرأيتَ «ابن الخطاب» ورقَّته وحزنه علينا؟

عامر: أطمِعتِ في إسلامه!

أم عبد الله: نعم!

عامر: لا يُسلم الذي رأيتِ؛ حتى يُسلم حمار «الخطاب»!

الوليد (لعمر)**:** أين ذهبتَ يا عمر؟ … استمِع إلى شعر «لبيد»!

عمر: نعم … إني مُصغٍ! … قل يا «لبيد»!

لبيد (ينشد)**:** ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ!

ابن مظعون (مقاطعًا في حماسة)**:** صدقتَ!

لبيد (يمضي في الإنشاد)**:** وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ!

ابن مظعون (مُقاطعًا)**:** كذبتَ! … نعيم الجنة لا يزول!

لبيد (غاضبًا)**:** يا معشر «قريش»! … والله ما كان يؤذَى جليسُكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

عقبة: إن هذا سفيهٌ في سفهاء معه، قد فارَقوا ديننا؛ فلا تجدَن في نفسك من قوله!

ابن مظعون: شهد الله مَن السفيه!

عقبة: قُبِّحتَ وقُبِّح دينُك؛ لو لم يكن «أبو عبد شمس» يجيرك ويحميك؛ للطَمتُ عينك!

ابن مظعون (للوليد)**:** يا «أبا عبد شمس»! … قد رددتُ إليك جوارك!

الوليد: لمَ؟

ابن مظعون: إني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره!

عقبة: أرِني إذَن كيف يجيرك ربك!

(يلطمه على عينه.)

ابن مظعون (يضع يده على عينه، وقد لطمها عقبة فخصرها)**:** آه!

الوليد: لقد كانت عينك عمَّا أصابها غنية؛ فقد كنت في جوارٍ منيع.

ابن مظعون (يرفع رأسه)**:** بلى والله! … إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله! … وإني لفي جوار مَن هو أعز منك وأقدر!

لبيد: يا معشر قريش! … هلمُّوا، أنشدكم في غير هذا المكان!

(ينصرفون ويتركون ابن مظعون وحده يعالج عينه … يمر به أبو بكر وقد شد متاعه إلى رحله.)

ابن مظعون (صائحًا به)**:** «أبا بكر»!

أبو بكر: لبيك!

ابن مظعون: أراحل أنت يا «أبا بكر»؟

أبو بكر: نعم … لقد ضاقت عليَّ «مكة» وأصابني فيها الأذى، ورأيتُ من تظاهُر «قريش» على رسول الله وصحابه ما لا طاقة لي به … ولقد هاجر كثير من المؤمنين!

ابن مظعون: أوَاستأذنتَ النبي؟!

أبو بكر: نعم! … لقد استأذنت رسول الله في الهجرة فأذن لي!

ابن مظعون (وهو ينصرف عنه)**:** على بركة الله يا «أبا بكر»!

أبو بكر (يلتفت إلى عين ابن مظعون المصابة)**:** ما بِعينِك يا «ابن مظعون»؟

ابن مظعون: بعض ذلك الأذى، الذي يصيبنا من المشركين!

أبو بكر: من؟

ابن مظعون: «عقبة» عدو الله! ... وليس لي الآن من يجيرني غير ربي، وما أرى والله إلا أن أرحل.

أبو بكر: نعم! ... اخرُج مثلي إلى أرض «الحبشة»!

ابن مظعون: نعم ... سأشد متاعي إلى رحلي، وأنطلق!

(ينصرف.)

(أبو بكر يحث راحلته على المسير، ويمشي قليلًا، فيقابله ابن الدغنة سيد الأحابيش.)

ابن الدغنة: أين يا «أبا بكر»؟

أبو بكر: أخرجَني قومي؛ وآذَوني، وضيَّقوا عليَّ!

ابن الدغنة: ولمَ؟ ... فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتُكسِب المُعدِم؛ ارجع وأنت في جواري أحميك!

أبو بكر: قبِلتُ!

ابن الدغنة (يعود بأبي بكر وهو يصيح)**:** يا معشر قريش! ... إني قد أجرتُ «ابن أبي قحافة»؛ فلا يعرضَن له أحد إلا بخير!

قريش (يجرون إلى ابن الدغنة)**:** أقد أجرتَ هذا الرجل؟!

ابن الدغنة: نعم ... وأنا سيد الأحابيش؛ فلا يعرضَن له أحد إلا بخير!

عقبة (يبرز من بين رجال قريش)**:** يا «ابن الدغنة»! ... إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا! ... إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به «محمد» يرِق ويبكي، وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوَّف على صبياننا ونسائنا وضعفَتِنا أن يفتنهم، فإنهم ليقفون عليه عند باب داره، يعجبون لما يرَون من هيئته وقراءته، فمُره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء!

ابن الدغنة (يلتفت إلى أبي بكر)**:** يا «أبا بكر»! ... إني لا أجيرك لتؤذي قومَك؛ إنهم يكرهون مكانك الذي أنت به، ويتأذَّون بذلك منك، فادخل بيتك فاصنَع فيه ما أحببتَ!

أبو بكر: أو أردُّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله.

ابن الدغنة: فاردُدْ عليَّ جواري.

أبو بكر: قد رددتُه عليك!

ابن الدغنة: يا معشر قريش! ... إن «ابن أبي قحافة» قد رد عليَّ جواري، فشأنكم بصاحبكم!

(ينصرف ويترك أبا بكر بينهم.)

قريش (يحيطون بأبي بكر ويعلو لجاجهم)**:** احبسوه! ... لا يهاجر! ... خذوا راحلته!
أعرابي (من بين القوم يحثو على رأس أبي بكر التراب)**:** إليك جزاء الضال!
أبو بكر (يلتفت فيجد بين القوم الوليد بن المغيرة)**:** ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه؟!
الوليد: أنت فعلتَ ذلك بنفسك!
أبو بكر (في ضيق)**:** أيْ ربِّ ما أحلمَك! ... أي ربِّ ما أحلمَك! ... أي ربِّ ما أحلمَك!

المنظر الرابع والعشرون

(في الطائف ... محمد في نفر من سادة ثقيف وأشرافهم، على مقربة من حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وهما فيه ينظران.)

عتبة (يهمس)**:** ما جاء به إلى «الطائف»؟
شيبة: ما أحسبه إلا جاء يلتمس النصرة من «ثقيف»، والمنعة بهم من قومه!
عتبة: «قريش»؟
شيبة: نعم! ... ما كان أحد يمنعه وينصره على «قريش» إلا عمه «أبو طالب»، فلما هلك عمه وهلكَت زوجته «خديجة» نالت منه «قريش» من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة عمه وزوجه!
عتبة: وهل تحسب «ثقيفًا» ناصرةً إياه؟
شيبة: إن لم تنصره ثقيف فلا ناصر له!
عتبة (يلتفت إلى ناحية القوم)**:** انظر يا شيبة! ... إنه جلس إلى أشراف «ثقيف» يدعوهم إلى ربه الذي يحدِّث عنه ... وما أرى في وجوه القوم إلا استهزاء به، وبما يقول!
شيبة (ينظر)**:** اسمع! ... هذا «مسعود بن عمرو» يدنو منه!
مسعود (يدنو من محمد)**:** إني أمرِط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.
عتبة (لشيبة همسًا)**:** أسمعتَ؟!
شيبة (هامسًا)**:** سمعتُ!
عتبة (همسًا)**:** أرى وجهه قد تغيَّر!
شيبة: هذا أيضًا «عبد ياليل بن عمرو» يدنو منه!
عبد ياليل (يدنو من محمد)**:** أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟

عتبة (هامسًا)**:** إنهم يُغلظون له!

شيبة: صه! ... هذا «حبيب بن عمرو» يدنو منه كذلك ليقول له شيئًا.

حبيب (لمحمد)**:** والله لا أكلمك أبدًا؛ لئن كنتَ رسولًا من الله كما تقول؛ لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام! ... ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك!

(محمد يقوم، وقد يئس منهم.)

عتبة: انظر يا «شيبة»؛ إنه قد قام!

شيبة: ما أراه إلا يائسًا حزينًا!

عتبة: إنه يريد أن يقول لهم شيئًا، اسمع ...

محمد (للقوم)**:** إذْ فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عني!

عتبة (هامسًا)**:** ماذا يريد بهذا؟

شيبة: لعله يكره أن يبلغ قومَه عنه خذلانُ «ثقيف» له، فيذئرهم ذلك عليه.

(صياح وأصوات ...)

عتبة: ما هذا الصياح؟ ... (ينظر) انظر! ... هؤلاء ناس وعبيد يصيحون به!

شيبة (ينظر)**:** ما أحسب إلا أن القوم قد أغرَوا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به!

عتبة: انظر! ... لقد اجتمع عليه الناس، وهو لا يستطيع منهم فرارًا!

شيبة: ما أرى إلا أنه سيلقى منهم أذًى كثيرًا!

عتبة: إنه مقبل علينا.

شيبة: إنهم يسدون عليه السبيل.

(الصياح يقترب ...)

عتبة: لقد ألجَئوه إلى حائطنا!

شيبة: أجل، ها هو ذا يسقط إعياءً!

(محمد يعمد إلى ظل حبلة من عنب فيجلس فيه، وقد رجع عنه من يتبعه من سفهاء ثقيف.)

عتبة: أيُّ هوانٍ لقي هذا الرجل من أهل «الطائف»!

شيبة: أتحركَت له رحمتُك يا «عتبة»!

عتبة (ينظر إليه)**:** اسمع! ... أصغِ! ... إنه يقول شيئًا!

محمد (وقد اطمأن قليلًا، بعد ذهاب الناس عنه)**:** «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! ... أنت رب المستضعفين، وأنت ربي ... إلى مَن تكلُني؟ أإلى بعيد يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكتَه أمري؟ ... إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ... ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقَت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.»

عتبة (همسًا لأخيه شيبة)**:** أسمعتَ؟

شيبة (مأخوذًا)**:** نعم!

عتبة: أيمكن أن يكون مِثل ذلك الرجل كذَّابًا؟

شيبة: ويحك يا «عتبة»!

عتبة (ينادي غلامه همسًا)**:** يا «عداس»!

عداس: لبَّيْك!

عتبة: خذ قطفًا من العنب فضعه في الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه!

(عداس يسرع إلى ما أُمِر به.)

شيبة (ينظر إلى وجه أخيه)**:** ما حملك على هذا؟

عتبة (ينظر إلى النبي)**:** انظر يا «شيبة»! ... إن «عداسًا» قد أقبل بالطبق ووضعه بين يديه!

عداس (لمحمد)**:** كُل!

محمد (يضع يده في الطبق)**:** بسم الله! ... (ثم يأكل.)

عداس (ينظر في وجه محمد)**:** والله إن هذا لكلامٌ ما يقوله أهل هذه البلاد!

محمد: ومن أهل أيِّ البلاد أنت؟ ... وما دينك؟

عداس: نصراني، وأنا رجل من أهل «نِينَوى»!

محمد: من قرية الرجل الصالح «يونس بن مَتَّى»؟

عداس (في عجب)**:** وما يدريك ما «يونس بن متى»؟

محمد: ذاك أخي؛ كان نبيًّا، وأنا نبي!
عداس (يكب على محمد يقبِّل رأسه ويدَيه وقدمَيه)**:** نبي! … نعم نبي!
عتبة (هامسًا لشيبة)**:** أرأيت؟
شيبة: نعم!
عتبة: وما تقول في هذا؟
شيبة: أمَّا غلامك فقد أفسدَه عليك!

(عداس يقبل عليهما.)

عتبة: ويلك يا «عداس» ما لك تقبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟!
عداس: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي!
شيبة: ويحك يا «عداس»، لا يصرفنَّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه!
عداس: إن مثله لا يمكن أن يحتمل ما لقي إلا في سبيل الحق، ولا أن يثبت على دينه بعد كل هذا إلا أن يكون دينُه دينَ الحق!

المنظر الخامس والعشرون

(في الحبشة، بين يدي النجاشي.)

(النجاشي على عرشه بين بطارقته.)

البطارقة: لقد جاء من «مكة» رسولان.
النجاشي: أدخلوهما!

(يُدخلون عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص.)

عبد الله (همسًا لعمرو)**:** هل قدَّمتَ إلى كل بطريق منهم هديته؟
عمرو (همسًا)**:** نعم … وسيعملون بما نريد!
البطارقة: أيها الملك … لقد جاءاك بهدايا كثيرة!
النجاشي: تقدَّما يا رسولا الخير!

(عمرو يتقدم بين يدي النجاشي.)

عمرو: أيها الملك! ... إنا قد جئنا نسألك أمرًا ... لقد أوى إلى بلدك منا غِلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك. وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم عليهم؛ فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتَبوهم فيه!

عبد الله (همسًا لعمرو)**:** أخوَف ما أخاف أن يسمع «النجاشي» كلامهم، فيفسد الأمر!

(عمرو يغمز بعينه للبطارقة.)

البطارقة: صدقًا أيها الملك! ... قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما؛ فليرداهم إلى بلادهم وقومهم!

النجاشي (غاضبًا)**:** لا، ها الله! ... إذَن لا أُسلِمهم إليهما وهم قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، لن أُسلِمهم حتى أدعوَهم فأسألهم عمَّا يقول هذان في أمرهم؛ فإن كانوا كما يقولان أسلمتُهم، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم منهم، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني! ... عليَّ بأساقفتي!

(يسرع بعض أعوانه صادعين بأمره، ويدخل الأساقفة، ويدخل المهاجرون من أصحاب محمد ... بينهم ابن مظعون، وجعفر بن أبي طالب، ويتهامسون مضطربين، إذ يرَون رسولَي مكة، بينما ينشر الأساقفة مصاحفهم حول النجاشي.)

جعفر (همسًا لابن مظعون)**:** لقد وشى بنا قومُنا!

ابن مظعون (همسًا)**:** نعم ... وشَوا بنا للملك ... وما نقول له الآن؟

جعفر (همسًا)**:** نقول والله ما علَّمَنا وما أمرَنا به نبينا؛ كائنًا في ذلك ما هو كائن!

النجاشي (يلتفت إلى المهاجرين)**:** تقدموا يا أصحاب «محمد»!

المهاجرون: أيها الملك!

النجاشي: ما هذا الدين الذي قد فارقتُم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحدٍ من هذه المِلَل؟!

جعفر (يتقدم بين يدي النجاشي)**:** أيها الملك! ... كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ،

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصَنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ فصدَّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومُنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردُّونا من عبادة الله إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلمَّا قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجَونا ألا نُظلَم عندك أيها الملك!

النجاشي: هل معك مما جاء به نبيكم عن الله من شيء؟

جعفر: نعم!

النجاشي: اقرأ عليَّ!

جعفر (يتلو): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

النجاشي: إن هذا والذي جاء به «عيسى» ليخرج من مشكاةٍ واحدة!

الأساقفة: والله هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرَت منه كلمات سيدنا «يسوع المسيح»!

عبد الله (همسًا لعمرو)**:** أسمعتَ؟

النجاشي (لعمرو وعبد الله)**:** انطلقا! ... فلا والله لا أُسلِمهم إليكما!

عمرو (همسًا لعبد الله)**:** أأقول له عنهم الآن ما أستأصل به خضراءهم؟

عبد الله: لا تفعل! ... إن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا!

عمرو (همسًا)**:** والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن «عيسى ابن مريم» عبد!

عبد الله: لا تفعل!

عمرو (لا يصغي إلى رفيقه، ويتقدم)**:** أيها الملك! ... إنهم يقولون في «عيسى ابن مريم» قولًا عظيمًا!

(النجاشي يلتفت إلى أساقفته، ويحادثهم همسًا، وكذلك بعض أصحاب محمد يتهامس بعضهم مع بعض!)

ابن مظعون (لجعفر همسًا)**:** ماذا نقول في «عيسى ابن مريم» إذا سئلنا؟

جعفر (همسًا)**:** والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا؛ كائنًا في ذلك ما هو كائن!

النجاشي (يلتفت إلى المهاجرين)**:** يا أصحاب محمد! ... ماذا تقولون في «عيسى ابن مريم»؟

جعفر (يتقدم)**:** نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو «عبد الله» ورسوله وروحه، وكلمته، ألقاها إلى «مريم العذراء البتول»!

النجاشي (يضرب بيده إلى الأرض، فيأخذ منها عودًا)**:** والله ما عدا «عيسى ابن مريم» مما قلتَ هذا العود!

(البطارقة يتناخرون.)

النجاشي (يلتفت إلى بطارقته)**:** وإن نخرتم!

(لأصحاب محمد):

والله اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي؛ من سبَّكم غرم! ... من سبَّكم غرم! ... من سبَّكم غرم!

(يشير إلى رسولَي قريش):

ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها؛ فوالله ما أخذ الله مني الرِّشوة حين ثبَّت لي ملكي؛ فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيَّ؛ فأطيعَهم فيه!

(يخرج عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة مخذولَين مقبوحَين.)

المنظر السادس والعشرون

(في مكة ... النبي في داره وحيدًا مطرقًا، ومعه خولة بنت حكيم!)

خولة: يا رسول الله! ... كأني أراك قد دخلك حزن لفقد «خديجة»!
محمد: أجل! ... كانت أمَّ العيال، وربة البيت!
خولة: أي رسول الله! ... ألا تَزوَّج؟
محمد (يرفع رأسه)**:** من؟
خولة: إن شئتَ بكرًا، وإن شئتَ ثيبًا!
محمد: فمن البكر؟
خولة: بنت أحب خلق الله إليك ... «عائشة بنت أبي بكر»!
محمد: ومن الثيب؟
خولة: «سودة بنت زمعة» آمنَت بك واتبعَتك!
محمد (يطرق لحظة متفكرًا، ثم يرفع رأسه)**:** اذهبي؛ فاذكريهما عليَّ!

المنظر السابع والعشرون

(في طريقٍ من طُرق مكة ليلًا ... نعيم بن عبد الله وعمر بن الخطاب يتقابلان.)

نعيم: أين تريد يا «عمر»؟
عمر: أريد جلسائي فلا أجدهم، ولقد جئت «إسحاق» الخمار لعلِّي أجد عنده خمرًا، فأشرب منها، فلم أجده!
نعيم: لقد مضى عهد الخمر!
عمر: هذا كلام «محمد»، وفعل «محمد» هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وعاب دينها، وسفَّه أحلامها، وشتَّت مجالسها، وضيَّع بهارجها، وشرَّد شعراءها!

نعيم: نِعم كلامه ونِعم فعله!

عمر: إنك اتبعتَه!

نعيم: نعم!

عمر (يلطمه)**:** قبَّحك الله! ... والله لأقتلن «محمدًا» بسيفي هذا!

(يشير إلى سيفه المتوشح به.)

نعيم (ويده على وجهه)**:** والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا «عمر»! ... أترى «بني عبد مناف» تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت «محمدًا»؟ ... أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟!

عمر: أي أهل بيتي؟

نعيم: أختك «فاطمة» وزوجها «سعيد بن زيد»؛ فقد والله أسلما، وتابعا «محمدًا» على دينه!

عمر: أهل بيتي؟!

(يتركه ويجري إلى بيت أخته.)

المنظر الثامن والعشرون

(في دار فاطمة أخت عمر بن الخطاب ... فاطمة وزوجها سعيد ومعهما خباب — وهو أحد المؤمنين — يقرأ عليهما قرآنًا من صحيفة ...)

خباب (يتلو)**:** ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

سعيد (يلتفت إلى الباب)**:** صه يا «خباب»! ... هذا حس «عمر»!

خباب (ينهض في الحال مرتاعًا)**:** أخشى أن يكون قد سمع ما أقرأ!

فاطمة: هاتِ الصحيفة واختبئ في المخدع!

(تأخذ منه الصحيفة، فتجعلها تحت فخذها، ويسرع خباب إلى المخدع، فيغيب فيه.)

عمر (يدخل)**:** ما هذه الهينمة التي سمعتُ؟
سعيد: ما سمعتَ شيئًا!
عمر: بلى ... لقد أُخبِرتُ أنك تابعتَ «محمدًا» على دينه أيها الخاسر!

(يبطش به.)

فاطمة (تقوم إلى أخيها عمر؛ لتمنع زوجها)**:** كفَّ عنه!
عمر: وأنتِ أيضًا!

(يضرب أخته فيشجها.)

فاطمة وسعيد (في تحدٍّ وشجاعة)**:** نعم ... قد أسلمْنا، وآمنا بالله ورسوله؛ فاصنع ما بدا لك!
عمر (يرى الدم يسيل من رأس أخته، فيرقُّ قليلًا)**:** أسلمتما؟!
فاطمة (تتناول صحيفتها، وتريد أن تمضي)**:** نعم!
عمر: أكنتما تقرآن هذه الصحيفة؟
فاطمة: نعم!
عمر: أعطيني أقرأ وأنظر ما هذا الذي جاء به «محمد»؟
فاطمة: إنا نخشاكَ عليها!
عمر: لا تخافي، واللات والعزى لأردَّنها إليك إذا قرأتُها!
فاطمة: إنك نجس على شِركك! ... وإنه لا يمسها إلا الطاهر؛ فاغتسل!
عمر: أفعل!

(يذهب إلى البيت ليغتسل.)

سعيد (لفاطمة)**:** إنك تطمعين في إسلامه!
فاطمة: أرجو أن يهديه الله إليه!
خباب (يخرج من باب المخدع ويهمس)**:** ألا تتركاني أخرج إلى الطريق؟!
فاطمة: صبرًا حتى ننظر ما يكون من أمر «عمر»؛ فلو أخرجناك الآن لا نأمن أن يشعر بخروجك فيبطش بك!
سعيد (يرى عمر مقبلًا)**:** صه! ... لقد عاد!
عمر (يعود)**:** هاتِ الصحيفة!

فاطمة: أتطهرتَ؟

عمر: نعم!

فاطمة (تعطيه الصحيفة)**:** خذ!

عمر (يقرأ)**:** ﴿... اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى * وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

(فاطمة تنظر إلى سعيد، وينظر سعيد إليها، وقد رأيا من هيئة عمر ورقَّة صوته ما استبشرا له.)

عمر (كالمخاطب لنفسه)**:** ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

خباب (ينصت خلف باب المخدع، فما إن يسمع عبارة عمر حتى يخرج صائحًا)**:** يا عمر! ... والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه؛ فإني سمعتُه أمس، وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بـ «أبي الحكم بن هشام» أو بـ «عمر بن الخطاب».

عمر (يفكر)**:** ماذا تقول؟

خباب (مستحثًّا إياه)**:** الصدق ... الله، الله يا «عمر»!

عمر (يرفع رأسه)**:** نعم ... دُلَّني يا «خباب» على «محمد» حتى آتيه فأسلم!

خباب: هو في بيتٍ عند «الصفا» معه فيه نفر من أصحابه.

(عمر يأخذ سيفه فيتوشحه، ويمضي.)

المنظر التاسع والعشرون

(في بيت بالصفا ... محمد بين أصحابه ... الباب يضرب عليهم.)

أبو بكر (في صوتٍ خافت)**:** من الذي يضرب علينا الباب؟

حمزة: فليذهب أحدنا ينظر من خلل الباب!

(يذهب علي بن أبي طالب فينظر، ثم يعود فزعًا.)

علي (للنبي وهو فزع)**:** يا رسول الله! ... هذا «عمر بن الخطاب» متوشحًا السيف!
أبو بكر (في خوف)**:** اللهم اكفِنا «عمر»! ... إنه شديد البطش!
محمد (يفكر)**:** عمر؟
حمزة: إيذَنْ له يا رسول الله! ... فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه!
محمد: أذنتُ!

(يذهب علي وخلفه رجال من الأصحاب يفتحون الباب لعمر، فيدخل عمر ويقف في المكان دهشًا واجمًا، ينظر في القوم.)

محمد (ينهض إليه يلقاه فيأخذ بمجمع ردائه، ثم يجبذه به جبذةً شديدة)**:** ما جاء بك يا «ابن الخطاب»؟ ... فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة!
عمر: يا رسول الله! ... جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله!
محمد (يرسله مغتبطًا)**:** الله أكبر! ... الله أكبر! ... الله أكبر!
أبو بكر (في فرح)**:** إن «عمر» قد أسلم؟
الجميع (يتهامسون في فرح)**:** قد أسلم «عمر»!
علي (همسًا لأصحاب النبي في فرح)**:** إن «عمر» قد أسلم! ... ألا ترَون أنا قد عُزِّزنا في أنفسنا الآن بإسلام «عمر» مع إسلام عمي «حمزة»؟ ... إنهما سيمنعان النبي، وسننتصف بهما من عدونا!
محمد (يمسح صدر عمر)**:** الحمد لله! ... قد هداك الله يا «عمر» أدعو الله لك بالثبات!

المنظر الثلاثون

(أمام دار أبي جهل ... رجال من قريش بينهم عمر بن الخطاب.)

عمر: أيُّ قريش أنقَلُ للحديث؟
قريش (يشيرون إلى رجل مقبل عليهم)**:** هذا المقبل علينا!
عمر (يلفت)**:** من؟ ... «جميل بن معمر»؟
قريش: نعم!

عمر (لجميل)**:** أقبل يا «جميل»! ... أعلمتَ الخبر؟
جميل (في اهتمام)**:** أيُّ خبر؟
عمر: إني قد أسلمتُ، ودخلتُ في دين «محمد»!

(جميل لا يراجعه، وينطلق لا يلوي على شيء.)

قريش (صائحين مستنكرين)**:** أسلمتَ يا «عمر»؟!
عمر: أخبروني أي أهل «مكة» أشد لـ «محمد» عداوة؛ حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمتُ؟

(قريش ينظرون إليه في عجب وغضب صامتين.)

صبي (من بين رجال قريش)**:** هو «أبو الحكم بن هشام».
عمر (ينظر إلى القوم في استخفاف، ثم يتجه إلى دار أبي جهل)**:** أليست هذه داره؟!

(قريش ينظرون إليه كاظمين ما بهم.)

عمر: فلنضرب عليه ببابه! ... (يضرب على باب أبي جهل) يا «أبا الحكم»! افتح!
أبو جهل (يفتح الباب)**:** مرحبًا وأهلًا بابن أختي! ... ما جاء بك؟
عمر: جئتُ لأخبرك أني قد آمنتُ بالله، وبرسوله «محمد»، وصدَّقتُ بما جاء به!
أبو جهل (يضرب الباب في وجه عمر)**:** قبَّحك الله، وقبَّح ما جئتَ به!

(عمر ينصرف عن داره ضاحكًا، وإذا صوت «جميل» آت من جهة الكعبة.)

جميل (من بعيد)**:** يا معشر قريش! ... ألا إن «عمر بن الخطاب» قد صبأ!
عمر (وقد أصغى إلى الصوت)**:** كذب! ... ولكني قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله، وأن «محمدًا» عبده ورسوله!
قريش (نافدي الصبر يقومون إليه ثائرين صائحين)**:** قاتِلوا هذا الخارج عن ديننا!
عمر (يستل سيفه)**:** مَن يَقْرُبني منكم فهو هالك!
قريش: قاتِلوه! ... قاتِلوه!

(يهجمون عليه، ويقاتلونه، ويقاتلهم؛ حتى يعيا فيقعد.)

عمر: افعلوا ما بدا لكم، أحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لتركناها لكم أو لتركتموها لنا!

(العاص بن وائل يقبل ويمر بالرجال المجتمعين حول عمر.)

العاص: ما شأنكم؟!

قريش: صبأ «عمر»!

العاص: فَمَه! ... رجلٌ اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟

قريش: نريد أن نقتله ... إنه يختال علينا بدين «محمد»!

العاص: أترَون «بني عدي بن كعب» يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟! ... خلوا عن الرجل! ... (يدنو من عمر) قم معي يا «عمر»!

(ينصرف العاص مع عمر؛ ويبقى رجال قريش.)

قريش (ينظرون إلى رجلٍ قادم عليهم)**:** من هذا القادم؟!

رجل من قريش: هذا رجلٌ غريب من «أراش»، كان قدم «مكة» بإبل له، ابتاعها منه «أبو الحكم» ومطَلَه بأثمانها!

الأراشي (يقبل عليهم)**:** يا معشر «قريش»! ... مَن رجل يؤديني على «أبي الحكم بن هشام»؟ ... فإني رجلٌ غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي!

رجل من قريش (يلتفت ثم يهمس)**:** صه! ... هذا «محمد» مقبل علينا!

رجل من قريش (تلمع في رأسه فكرة)**:** أيها الأراشي! ... أتريد رجلًا يأخذ لك حقك؟

الأراشي: نعم!

القرشي (يشير إلى محمد)**:** أترى الرجل المقبل علينا؟ ... اذهب إليه فإنه يؤديك على «أبي الحكم»!

قريش (تعجبهم الفكرة، ويتضاحكون هازئين)**:** نِعم القول! ... اذهب إليه!

الأراشي (ينظر إليهم في ريبة)**:** أتهزءون بي؟

قريش (يتضاحكون)**:** كلا ... اذهب إليه ... ما من رجل غير هذا الرجل يقضي حاجتك عند «أبي الحكم»؛ فهو خير من يصغي إليه «أبو الحكم»!

رجل من قريش (يخفي ضحكة)**:** وهو أحب الناس إلى «أبي الحكم»! ... وأكرم الناس على «أبي الحكم»!

الأراشي (يتجه إلى محمد، ويعترض سبيله): يا «عبد الله»! ... إن «أبا الحكم بن هشام» قد غلبني على حق لي قِبَله، وأنا غريب ابن سبيل، وقد سالت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه، يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله!

محمد (يشير إلى دار أبي جهل): انطلق معي إليه!

(يتبع الأراشي إلى الدار.)

قريش (يتهامسون هازئين): انظروا ماذا يصنع؟

محمد (يضرب على أبي جهل بابه): يا «أبا الحكم»!

أبو جهل (مِن داخل البيت): مَن هذا؟

محمد: «محمد»! ... فاخرج إليَّ!

أبو جهل (يفتح ويخرج وقد امتقع لونه): أنت؟!

محمد (يشير إلى الأراشي): أعط هذا الرجل حقه!

أبو جهل (في رعدة): نعم ... لا تبرح حتى أعطيه الذي له.

محمد: أسرِعْ!

(يدخل أبو جهل داره ويخرج بمال الأراشي ويدفعه إليه.)

أبو جهل (للأراشي): خذ مالك!

(ثم يدخل بيته سريعًا.)

محمد (للأراشي): أهذا حقك؟

الأراشي (وهو يحصي المال): نعم!

محمد: الْحق بشأنك!

(ينصرف النبي.)

الأراشي (يقبل على مجلس قريش): جزاه الله خيرًا ... فقد والله أخذ لي حقي!

(ينصرف مسرورًا.)

قريش (لبعضهم بعضًا وقد وجموا مما رأوا): أرأيتم؟!

رجل من قريش: عجبًا من العجب! ... واللات، ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه، وما معه روحُه!

أبو جهل (يخرج في حذر ويمر بهم)**:** ماذا تقولون؟!

قريش (لأبي جهل)**:** ويلك ... ما لك! ... واللات، ما رأينا مثل ما صنعتَ قط!

أبو جهل: ويْحكم! ... واللات؛ ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعتُ صوته، فمُلئتُ منه رعبًا، ثم خرجتُ إليه، وإن فوق رأسه لفحلًا من الإبل، ما رأيت مثل هامتِه، ولا قَصَرَتِه، ولا أنيابه؛ لِفحل قط! ... لو أبَيتُ لأكلني!

قريش: واللات، ما كان معه فحلٌ قط! ... لقد شُبِّه لك من الروع يا «أبا الحكم»!

المنظر الحادي والثلاثون

(عند العقبة، في موسم الحج، محمد يلقى رهطًا من العرب.)

محمد: من أنتم؟!

القوم: نفر من «الخزرج».

محمد: أمن موالي «يهود»؟

القوم: نعم!

محمد: أفلا تجلسون، أكلمكم؟

القوم: بلى!

(يجلسون إليه.)

محمد: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ الكتاب، فهل تبايعونني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان؟ ... فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا، فأخذتم بحده في الدنيا كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة؛ فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر!

(ينهض أحد القوم وهو أسعد بن زرارة.)

أسعد: يا قوم! ... تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به «يهود»، فلا تسبقنكم إليه!

القوم: صدقتَ!

أسعد: أيها النبي! ... إنا نقبل منك ما عرضتَ علينا من هذا الدين.

القوم: نعم ... نقبل منك ونصدِّقك!

محمد: الله أكبر!

أسعد: إنا قد تركْنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك!

المنظر الثاني والثلاثون

(دار الندوة التي تجتمع فيها قريش للمشاورة ... إبليس في ثياب شيخٍ نجدي جليل، يدخل الدار وهي خالية، فتلقاه حية تظهر في الحائط.)

الحية (تصيح به ...): «إبليس» في لبوس شيخٍ من «نجد»؟!

إبليس: لا تصيحي أيتها الضئيلة!

الحية: ماذا جئتَ تصنع في «دار الندوة»؟

إبليس: أريد «محمدًا»!

الحية: تريد به الهلاك؟!

إبليس: أريد لنفسي الحياة!

الحية: ماذا صنع بك؟

إبليس: سيغير وجه الأرض!

الحية: كيف؟

إبليس: نور يخرج من قلبه يضيء الأرض!

الحية: وما يضيرك هذا؟

إبليس: يُعمي بصري هذا النور!

الحية: أطفئه من قلبه!

إبليس: لا سلطان لي على مثل هذه القلوب!

الحية: قلب لا ككل القلوب، إني لأذكر أمره، لقد أتاه الملكان وهو صغير بطست من ذهب مملوء ثلجًا، فأخذاه فشقَّا بطنه، واستخرجا قلبه، فشقَّاه، فاستخرجا علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبه وبطنه بذلك الثلج حتى أنقياه.

إبليس: العلَقة السوداء؟

الحية: تلك رسولك في كل قلب!

إبليس: تبًّا له! … تبًّا له!

الحية: كما كنت أنا رسولك إلى أول قلب!

إبليس: حواء؟

الحية: ذاك يومٌ ملعون إلى أبد الآبدين!

إبليس: أتندمين؟

الحية: ماذا جنيتَ من كل هذا؟

إبليس: قلتُ لكِ: تلك حياتي!

الحية: حياةٌ ملعونة في كل زمان!

إبليس: ويل للنفاق! … ويل للنفاق!

الحية: نفاقك؟

إبليس: بل نفاق من يلعننا!

الحية: كنت أود أن تفتن غيري!

إبليس: أود أن أفتن هذا الرجل!

الحية: إنك تقول أنْ لا سبيل لك عليه؟!

إبليس: تبًّا لي!

الحية: إنه ليس كغيره من الناس!

إبليس: تبًّا له!

الحية: لقد وزنه الملكان وهو صغير بعشرة من أمته فوزنهم، ثم وزناه بمائة من أمته فوزنهم، ثم وزناه بألف من أمته فوزنهم، فقالا: والله لو وزنَّاه بأمته كلها لوزنها!

إبليس: صه! … إنهم قادمون!

الحية: من هم؟

إبليس: ادخلي جحرك، ولأتخذن لغة القوم!

(الحية تختفي، ويقف إبليس بباب الدار، ويدخل أشراف قريش.)

أبو سفيان (لإبليس)**:** من الشيخ؟

إبليس: شيخٌ من أهل «نجد» سمع بالذي اتَّعدتُم له فحضر معكم؛ ليسمع ما تقولون، عسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا!

أبو جهل: أجل ... فادخل!

(إبليس يدخل معهم، ويجتمعون في دائرة.)

أبو سفيان (لأبي جهل)**:** تكلم يا «أبا الحكم»!

أبو جهل: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، ولقد علمتم أن «عمر ابن الخطاب» وهو أقوى «قريش» شكيمة قد اتبعه؛ كما اتبعه «حمزة» وإنه ليلقى الناس في مواسم الحج؛ يعرض عليهم دينه، ويزين إليهم أن يتبعوه؛ إنا، واللات، ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا! ... فأجمِعوا فيه رأيًا.

أمية بن خلف: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه — من الشعراء الذين كانوا قبله: «زهير» أو «النابغة» ومن مضى منهم — من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم!

إبليس: لا ... واللات ما هذا لكم برأي! ... واللات، لئن حبستموه — كما تقولون — ليخرجَن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه؛ فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينتزعوه من أيديكم؛ ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي ... فانظروا في غيره!

أبو سفيان (يتفكر قليلًا)**:** نُخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا؛ فإذا أخرج عنا، فواللات، ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغْنا منه، أصلحْنا أمرنا وأُلفتنا كما كانت!

إبليس: لا ... واللات ما هذا لكم برأي! ... ألم تروا حُسن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ ... واللات لو فعلتم ذلك ما أَمِنتم أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم؛ ثم يفعل بكم ما أراد! ... دبِّروا فيه رأيًا غير هذا!

أبو جهل (بعد تفكير)**:** واللات، إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد!

أبو سفيان: وما هو يا «أبا الحكم»؟

أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابًّا فتًى جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتًى منهم سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجلٍ واحد، فيقتلوه فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر «بنو عبد مناف»، على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم!

إبليس (مبتهجًا)**:** القول ما قال الرجل ... هذا الرأي الذي لا رأي غيره!

(يتفرق القوم على ذلك، وهم مجمِعون له.)

المنظر الثالث والثلاثون

(عند العقبة ليلًا ... الخزرج مجتمعون خفية في الشِّعب، العباس بن عبد المطلب ومحمد يقبلان.)

العباس: أوَقد واعدوك يا ابن أخي ها هنا؟

محمد: نعم!

العباس: إني أحببتُ أن أحضُر أمرَك وأتوثَّق لك؛ فإن كانوا حقًّا قادرين على أن يمنعوك، ويقوموا معك، ويخرجوا بك إلى بلادهم؛ فإنهم والله نعم الأنصار!

محمد: إنهم مجتمعون خفية في الشعب!

العباس (ينظر إلى القوم)**:** هؤلاء؟ ... إن عددهم والله لكثير!

محمد (للقوم): السلام عليكم!

القوم (ينهضون)**:** وعلى النبي السلام ورحمة الله!

العباس (يدنو منهم، ويقول فيهم)**:** يا معشر الخزرج! ... إن «محمدًا» منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا؛ ممن على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترَون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترَون أنكم مُسلمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدَعُوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده!

الخزرج: قد سمعْنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله؛ فخُذ لنفسك ولربك ما أحببتَ!

محمد: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم؟

(أحد القوم، وهو البراء بن معرور، يأخذ بيدَي النبي.)

البراء: نعم ... والذي بعثك بالحق، لمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا؛ فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحَلقة؛ ورِثْناها كابرًا عن كابر!

(ينهض رجلٌ آخر من الخزرج هو الهيثم بن التيهان.)

الهيثم: يا رسول الله! ... إن بيننا وبين اليهود حبالًا، وإنا قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحن فعلْنا ذلك ثم أظهرك الله؛ أن ترجعَ إلى قومك وتدَعنا؟!

محمد (يبتسم)**:** بلِ الدمَ الدمَ، الهدمَ الهدم ... أنا منكم وأنتم مني؛ أحارب مَن حاربتم، وأسالم مَن سالمتم!

(ينهض العباس بن عبادة.)

ابن عبادة (لقومه)**:** يا معشر الخزرج! ... هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟

الخزرج: نعم!

ابن عبادة: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترَون أنكم إذا نُهكَت أموالكم مصيبةً وأشرافُكم قتلًا؛ أسلمتموه؛ فمن الآن، فهو والله — إن فعلتم — خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترَون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نَهكَة الأموال، وقتلِ الأشراف، فخُذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة!

الخزرج: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتْل الأشراف. (للنبي) فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَيْنا؟

محمد: الجنة!

الخزرج: ابسط يدك!

(محمد يبسط لهم يده.)

الخزرج: اللهم اشهد! ... إنا بايعناك!

محمد: أخرِجوا إليَّ منكم اثنَي عشر نقيبًا؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم!

الخزرج (يُخرجون اثنَي عشر رجلًا منهم)**:** هؤلاء يا رسول الله!

محمد (للنقباء)**:** أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء؛ ككفالة الحواريين لـ «عيسى ابن مريم»، وأنا كفيل على قومي المسلمين!

النقباء: نعم يا نبي الله!

(يرتفع فجأةً صوتٌ صارخ من رأس العقبة ...)

الصوت: يا أهل الجباجب! ... هل لكم في مذمَّمٍ والصُّباء معه ... قد اجتمَعوا على حربكم!

العباس: هذا الشيطان يصرخ من رأس «العقبة»!

(الجميع يلتفون ويصيحون …)

محمد: نعم … هذا هو «ابن أريب»! … استمع، أيْ عدوَّ الله! … والله لأفرُغنَّ لك!
الخزرج: نعوذ بالله منه!
محمد (للقوم)**:** ارفَضُّوا إلى رحالكم!
ابن عبادة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئتَ لنميلنَّ على أهل «مِنى» غدًا بأسيافنا!
محمد: لم نؤمَر بذلك … ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

المنظر الرابع والثلاثون

(ليلة الهجرة … النبي في داره.)

جبريل (للنبي)**:** لا تبِت هذه الليلة على فراشك الذي كنتَ تبيتُ عليه!

(يرتفع الوحي.)

علي بن أبي طالب (يدخل هامسًا)**:** ألمحُ في عتمة الليل رجالًا قد اجتمعوا على بابك، ما أحسبهم إلا يرصدونك حتى تنام، فيثِبُون عليك!
محمد: نمْ على فراشي «وتسجَّ» ببُردي هذا، الحضرمي الأخضر! … فنمْ فيه، فإنه لن يخلُص إليك شيء تكرهه منهم.

(علي يفعل ما أمره به النبي.)

أبو جهل (يهمس بين الرجال على باب النبي)**:** أكره أن يُفلِت منا الليلة؛ كما أفلتَ مني يوم احتملتُ الحجر أريد فضْخَ رأسه في المسجد!
أمية: وكيف أفلتَ منك يومئذٍ؟!
أبو جهل (هامسًا)**:** ما أدري واللات! … لقد أقبلتُ نحوه حتى إذا دنوتُ منه رجعتُ مرعوبًا وقد يبِسَت يداي على حَجَري حتى قذفتُه من يدي؛ فقد عرض لي دونه فحلٌ من الإبل، لا واللات، ما رأيتُ مِثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لِفحلٍ قط؛ فهمَّ بي أن يأكلني!
أمية: سَحرَك يا «أبا الحكم»؟!
أبو جهل: إن كان قد سحرني يومئذٍ فما أحسبه يستطيع ذلك الليلة معكم جميعًا!
أمية: أرى أنه قد نام!

أبو سفيان (يتطلع إلى مكان النبي)**:** إنه نائم في برده الأخضر الذي ينام فيه!

أبو جهل: إن «محمدًا»، يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعِثتُم من بعد موتكم فجُعِلَت لكم جنان كجنان الأردن، وإن تفعلوه كان له فيكم ذَبح ... ثم بُعِثتُم من بعد موتكم، فجُعِلَت لكم نار تُحرَقون فيها.

(محمد يخرج عليهم آخذًا حفنة من تراب في يده.)

محمد (هامسًا)**:** نعم ... أنا أقول ذلك ... أنت أحدهم!

(ينثر التراب على رءوسهم وهو يتلو): ﴿يس ❁ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ❁ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ❁ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ❁ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ❁ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ❁ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ❁ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(ينصرف النبي، وهم كالنائمين لا يبصرون.)

راعٍ (يمر بهم)**:** يا معشر قريش!

(قريش لا تراه!)

الراعي (لقريش)**:** ما تنتظرون ها هنا أيها الناس؟

الجميع (كأنما أفاقوا، يهمسون)**:** «محمدًا»!

الراعي: قد والله خيَّبكم الله ... خرج عليكم «محمد»، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته ... أفما ترون ما بكم؟

الجميع (يضع كل منهم يده على رأسه)**:** حقًّا ... هذا تراب! ... ما هذا التراب؟

(يتطلعون إلى فراش النبي، وفيه علي في بُرد رسول الله.)

أبو جهل (متطلعًا)**:** واللات، إن هذا لـ «محمد» ... نائمًا عليه بُرده!

الراعي (كالمخاطب لنفسه)**:** إن «محمدًا» قد هاجر أيها الغافلون!

المنظر الخامس والثلاثون

(في غار ثور ... محمد وأبو بكر، ومعهما عبد الله بن أريقط يهديهما الطريق.)

ابن أريقط (يلتفت ثم يهمس)**:** لقد أُدرِكْنا!
أبو بكر: أترى أحدًا مقبلًا؟!
ابن أريقط (وهو ينظر إلى بطن الصحراء)**:** أرى فِتيان «قريش» مقبلين؛ من كل بطنٍ رجل، بأسيافهم وعصيِّهم وهراواتهم!

(محمد يطرق مفكرًا صامتًا.)

أبو بكر (خائفًا واجف القلب)**:** رحمتك اللهم!
ابن أريقط (في همس)**:** صه! ... لقد دنَوا منا!

(تعلو أصوات قريش ...)

قريش (متصايحة)**:** هذا «غار ثور»!
بعض من قريش (متصايحون)**:** إنهما في «غار ثور»!
بعضٌ آخر: إلى باب الغار! ... إلى باب الغار!
ابن أريقط (همسًا)**:** هذا أحدهم عند الباب!

(محمد يرتعد قليلًا، وينظر في صمت.)

رجل من قريش (يصيح)**:** إن على الباب العنكبوت قبل ميلاد «محمد»!

(يذهب هذا الرجل من حيث أتى.)

أبو بكر (في رجاء هامسًا)**:** لقد ذهب!
قريش (تصيح)**:** لا أثر لهما في هذه البطون! ... فلينظر أحدنا في الغار!
ابن أريقط (همسًا)**:** وهذا واحدٌ آخر منهم مقبلًا علينا!

(أبو بكر يرتجف في صمت.)

محمد: لا تحزن! ... إن الله معنا!
رجل من قريش (ينظر إلى فم الغار ثم يمضي)**:** عجبًا! ... حمامتان وحْشيتان!

قريش: ما لك لم تنظرْ في الغار؟

الرجل: ليس فيه أحد!

قريش: كيف عرفتَ؟

الرجل (وهو عائد إليهم)**:** رأيت حمامتَين وحْشيتَين بفم الغار، فعرفتُ أن ليس فيه أحد!

أبو بكر (هامسًا في رجاء)**:** لقد درأ الله عنا!

ابن أريقط (ينظر)**:** إنهم ينصرفون!

أبو بكر (في فرح)**:** لقد درأ الله عنا!

ابن أريقط: لقد ذهبوا وابتعدوا!

محمد: الحمد الله! ... الله أكبر!

أبو بكر (ينهض فيسوي بيده مكانًا ينام فيه محمد، ثم يبسط عليه فروة)**:** نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك.

محمد (وهو يرقد متعبًا في المكان الذي هيأه أبو بكر)**:** نعم!

ابن أريقط (همسًا لأبي بكر)**:** هذا راعٍ مقبلًا بغنمه على الغار!

أبو بكر: ما يريد؟

ابن أريقط: إنه ليريد منه الذي أرَدْنا؛ فهو خير ملجأ له ولغنمه.

أبو بكر (يخرج من الغار)**:** لمن أنت يا غلام؟

الراعي: لرجل من أهل المدينة!

أبو بكر (يلتفت إلى غنمه)**:** أفي غنمك لبن؟

الراعي: نعم!

أبو بكر: أفتحلب لي؟

الراعي: نعم!

(يأخذ الراعي شاة.)

أبو بكر: انفض الضرع من الشعر والتراب والقذَى!

(الراعي يحلب في قعب معه.)

ابن أريقط (همسًا لأبي بكر)**:** هو نائم!

(يكره أبو بكر أن يوقظ النبي، فيقف باللبن حتى يستيقظ.)

أبو بكر (للنبي وقد فتح عينيه)**:** يا رسول الله! … اشرب!
محمد (يشرب حتى يرتوي)**:** ألم يأنِ للرحيل؟
أبو بكر (للدليل)**:** يا ابن أريقط! … ألم يأنِ للرحيل؟
ابن أريقط (ينظر إلى الفضاء)**:** نعم … لقد زالت الشمس.
أبو بكر: هيئ الراحلتَين!

(محمد ينهض، وينهض معه أبو بكر، ويتهيآن للرحيل.)

ابن أريقط (يأتي بالراحلتين إلى فم الغار)**:** اركبا!
أبو بكر (للنبي مشيرًا إلى أفضل الراحلتين)**:** اركب فِداك أبي وأمي!
محمد: إني لا أركب بعيرًا ليس لي!
أبو بكر: هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي!
محمد: لا … ولكن ما الثمن الذي ابتعتَها به؟
أبو بكر: أربعمائة درهم!
محمد: قد أخذتُها به.
أبو بكر: هي لك يا رسول الله.

(يركب محمد على راحلة، ويركب أبو بكر على الراحلة الأخرى، ويردف خلفه ابن أريقط، وينطلقون.)

المنظر السادس والثلاثون

(في الطريق — على مقربة من خيمتَي أم معبد — النبي وأبو بكر ودليلهما على راحلتيهم.)

أبو بكر (لابن أريقط)**:** من يعدو في أثرنا؟
ابن أريقط (يلتفت)**:** هذا فارس في سلاحه، قد لحِق بنا!
أبو بكر (في فرَق)**:** قد أُتِينا!
محمد: لا تحزن! … إن الله معنا!
ابن أريقط (يلتفت)**:** لقد عثَر به فرسه فسقط عنه!

الفارس (يصيح خلفهم)**:** أنا «سراقة بن جعْثم»! ... انظروني أكلمْكم؛ فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه!

محمد (لأبي بكر)**:** قل له: وما تبتغي منا؟

أبو بكر (صائحًا لسراقة)**:** ما تبتغي منا؟

سراقة: إني قد علمتُ أنكما دعوتُما عليَّ فسقطتُ عن فرسي، فادعوا لي؛ فاللهُ لكما أن أردَّ عنكما الطلب.

أبو بكر (ينظر إلى النبي فيراه يدعو له)**:** إن رسول الله قد دعا لك!

سراقة: لقد جعلَت قريش في «محمد» مائة ناقة لمن ردَّه عليهم ... وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة، فخرجتُ في أثركم كما ترَون، ولكنني عرفتُ الآن أن «محمدًا» قد مُنِع مني وأنه ظاهر ... وإني لأبتغي منه شيئًا!

أبو بكر: ماذا؟

سراقة: يكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينه ... حتى إذا أظهره الله وكانت لي حاجة، التمستُها إليه فعرفني!

محمد (لأبي بكر)**:** اكتب له يا «أبا بكر»!

أبو بكر (يكتب لسراقة عهدًا في عَظم ويلقيه إليه!)**:** خذ!

سراقة (يأخذه فيضعه في كنانته، ويرجع من حيث أتى)**:** سأرجع لأرد عنكم من يلتمسكم!

(يذهب.)

أبو بكر (يرى خيمتَي أم معبد)**:** هذه «أم معبد» بين خيمتَيها، ألا نسألها طعامًا؟ (يلتفت إلى النبي فيرى على وجهه الموافقة) أصبت!

(ثم ينزلون عن راحلتيهم ويُقبلون على أم معبد ويقرئها النبي السلام، ويفعل مثله من معه.)

ابن أريقط (يرى كلأ وعشبًا، على مقربة من الخيمتين)**:** ها هنا رزق للدابتَين!

أبو بكر (لأم معبد)**:** أما عندك تمر أو لحم؛ نشتري؟

أم معبد: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى!

محمد (ينظر إلى شاة في كسر الخيمة)**:** ما هذه الشاة يا «أم معبد»؟

أم معبد: هذه شاة خلَّفها الجهد عن الغنم!

محمد: هل بها من لبن؟
أم معبد: هي أجهد من ذلك!
محمد: أتأذنين لي أن أحلبها؟
أم معبد: نعم: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا!
محمد (يدعو الشاة ويمسح ضرعها)**:** بسم الله! ... اللهم بارك لها في شاتها!

(تتفاجُّ الشاة، وتدرُّ، وتجترُّ.)

أبو بكر: إناءَكِ يا «أم معبد»!

(محمد يجلس للشاة، ويتناول إناء من أم معبد فيملؤه لبنًا.)

أم معبد: ما أعجب الذي أرى!
أبو بكر: لا تعجبي!
محمد (يسقي أم معبد)**:** اشربي يا «أم معبد»!
أم معبد (تشرب حتى تروى)**:** جُزِيتَ خيرًا.
محمد (يسقي أبا بكر)**:** اشرب يا «أبا بكر»!
أبو بكر: وأنت يا رسول الله؟
محمد: ساقي القوم آخرهم!

(يشرب النبي آخر من شرِب.)

ابن أريقط: أمَا وقد روينا فلنرحل!
محمد: نعم ... جزاكِ الله خيرًا يا «أم معبد»!

(يرحلون بعد أن يودِّعوا أم معبد.)

أم معبد (تنظر إليهم صامتة في عجب؛ حتى يغيبوا عن بصرها)**:** على خير طائر!

أبو معبد (زوجها يأتي يسوق أعنُزًا عجافًا هزلى، فيرى اللبن في الإناء)**:** عجبًا! ... من أين لكم هذا والشاة عازبة، ولا حلوبة في البيت؟

أم معبد: لا والله ... إلا أنه مر بنا رجلٌ مبارك، ما مسح ضرع الشاة بيده حتى تفاجَّت وأدرَّت واجترَّت، وأتيتُ له بالإناء فحلب فيه ثجًّا إلى أن غلبه الثُّمال فسقاني فشربتُ حتى رويتُ، وسقى صاحبَيه حتى رويا، وشرب هو آخرهم!

أبو معبد: صِفِيه لي يا «أم معبد»!

أم معبد: هو رجل ظاهر الوضاءة متبلِّج الوجه، حسَن الخَلق، وسِيم قسِيم، في عينَيه دعج، وفي صوته صحَل، ليس بالطويل الممغِط، ولا القصير المتردِّد، ولا بالجعْد القَطط ولا السَّبْط، شديد سواد الشعر، في عنقه سطَعٌ وفي لحيته كثافة، إذا مشى تقلَّع؛ كأنما يمشي في صَبَب، وإذا صمتَ فعليه الوقار، وإذا تكلم سما، وعَلاه البهاء، حلو المنطق؛ فصْلٌ، لا نزْرٌ ولا هذْر، غصنٌ بين غصنَين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، وهما يحُفان به، إذا قال استمَعا لقوله، وإن أمر تبادَرا إلى أمره، محفودٌ محشود، لا عابسٌ ولا مُفنِد!

أبو معبد (يتفكر ثم يصيح): هذا والله صاحب قريش، الذي ذُكِر لنا من أمره ما ذُكِر ... ولو كنتُ وافقتُه يا «أم معبد» لالتمستُ أن أصحبه ... (يفكر) ولأفعلن إن وجدتُ إلى ذلك سبيلًا.

الفصل الثالث

المنظر الأول

(في يثرب ... جمْع من الأنصار والمهاجرين ينتظرون على أبواب المدينة في حمارة القيظ.)

الأنصار: ألمْ يقدم بعد؟

المهاجرون: نرجو أن يقدم اليوم!

يهودي (من بينهم)**:** كل يوم تقولون هذا!

عبد الله (من الأنصار)**:** والله إنا لنخرج في أول النهار من كل يوم؛ نتحيَّن قدومه، حتى تحرقنا الشمس، فنرجع إلى منازلنا وما قدم!

أبو أيوب (من الأنصار)**:** صبرًا يا «عبد الله»!

عبد الله: والله لا أجد بي صبرًا ... أريد أن أنظر إليه وأرى وجهه!

أبو أيوب: أنا أيضًا ... والله أبغي رؤية ذلك الذي ملأ قلوبنا بالهدى!

عتبان (من الأنصار)**:** صدقتما والله! ... لقد اتبعناه وأحببناه وما رأيناه!

اليهودي: أوَسمعتم بمخرجه وحده؟

سعد (من المهاجرين)**:** لقد سمعنا بمخرجه من «مكة» هو و«أبو بكر»!

سليط (من المهاجرين)**:** إن الشمس قد غلبَتنا على الظلال ولم يبقَ ظل، فلندخل بيوتنا فما أحسبه آتيًا اليوم!

الجمع (ينهضون)**:** نعم، فلندخل بيوتنا!

(ينصرفون إلى بيوتهم، ما عدا اليهودي فإنه صعد إلى أكمة لبعض شأنه، ولا يكادون يدخلون منازلهم حتى تُقبل الراحلتان وعليهما محمد وأبو بكر وابن أريقط.)

اليهودي (يلتفت من أعلى الأكمة، فيرى القادمين، فيصرخ بأعلى صوته)**:** يا بني قَيلة! ... هذا صاحبكم قد جاء!

المسلمون (من كل بيت يصيحون)**:** الله أكبر ... الله أكبر!

(ثم يُهرَعون خارجين يستقبلون النبي.)

(محمد ينزل عن راحلته، ويجلس مع أبي بكر في ظل نخلة.)

الناس (من نساء وصبيان وإماء يصيحون)**:** جاء نبي الله! ... جاء نبي الله!

(الحصين بن سلام، وهو من يهود يقبل مع عمَّته خالدة ليرى محمدًا.)

الحصين (يصيح في حماسة)**:** الله أكبر!
خالدة: خيَّبك الله! ... والله لو كنتَ سمعتَ بـ «موسى بن عمران» قادمًا ما زدتَ!
الحصين: أيْ عمة! ... هو والله أخو «موسى بن عمران» وعلى دينه، بُعِث بما بُعِث به!
خالدة: يا ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخبَر أنه يُبعَث مع نفس الساعة؟
الحصين: نعم!
خالدة (تلتفت إلى ناحية محمد)**:** فذاك إذَن!
الحصين: هلمِّي نراه!
خالدة (ناظرة إلى محمد وأبي بكر)**:** أيهما «النبي»؟ ... وأيهما أبو بكر؟
الحصين (ناظرًا إليهما)**:** لقد زال الظل عن أحدهما، فقام الآخر إليه يظله بردائه!
خالدة (تشير إلى النبي)**:** هو إذَن هذا!
الحصين (يُطيل النظر إلى محمد)**:** نعم! ... والله أرى وجهه ليس بوجهِ كذَّاب!

(المسلمون من أنصار ومهاجرين يُقبلون على النبي من كل مكان يسلمون عليه.)

الناس: يا رسول الله! ... جئتنا بالهدى! ... جئتنا بالهدى ... اهدِنا إلى الله؟

محمد: أيها الناس! ... أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام؛ وادخلوا الجنة بسلام!

(ينهض إلى راحلته ومعه أبو بكر.)

المسلمون: اركب آمنًا مطاعًا!

(ثم يحيطون بالنبي، وقد وضع النبي للناقة زمامها.)

الناس (من نساء وصبيان وإماء يصيحون فرِحين)**:** نبي الله جاء! ... نبي الله جاء!
بنو سالم (يعترضون سبيل النبي)**:** أَقِم عندنا يا رسول الله! ... في العدد والعدة والمنعة! ... أنأخذ بخطام الناقة؟
محمد (وهو يشير إلى الدابة)**:** خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة!

(يتركونها، ويسير قليلًا فيعترضه قوم آخرون من الأنصار.)

بنو الحارث: هلمَّ يا نبي الله إلى القوة والمنعة والثروة! ... (يمسكون بخطام الراحلة.)
محمد: إنها مأمورة فخلوا سبيلها!
بنو عدي (يعترضون الناقة كذلك)**:** يا رسول الله! ... هلمَّ إلى العدد والعدة والسلاح!
محمد: خلوا سبيلها فإنها مأمورة!

(تسير الناقة، حتى تقف على مربد فتبرك.)

الناس (في همس)**:** لقد بركَت الناقة!
محمد (يسأل من حوله)**:** لمن المربد؟
معاذ بن عفراء (يتقدم)**:** هو يا رسول الله لـ «سهل» و«سهيل» ابنَي «عمرو»!
محمد (همسًا)**:** يا «أبا بكر»!

(ثم يُلقي في أذنه كلامًا.)

أبو بكر (لمن حوله)**:** سيبتاع النبي هذا المربد ويرضيهما منه ... فهنا يُبنَى مسجد الله ومسكن رسوله!

المنظر الثاني

(تحت نخلةٍ لأحد اليهود … سلمان الفارسي وعبدٌ من العبيد يتحادثان.)

العبد (لسلمان)**:** لقد قصصتُ عليك أمري؛ فقصَّ عليَّ أمرك.

سلمان (كالمخاطب لنفسه)**:** والله إن أمري لعجب!

العبد: أين كنتَ قبل أن يبتاعك هذا اليهودي؟

سلمان: كنت رجلًا فارسيًّا من أهل «أصبهان»، من قرية يقال لها «جي» وكان أبي «دَهْقانَ» قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، ولم يزَل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبَس الجارية، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنت «قطَن» النار التي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة … وكان لأبي ضيعةٌ عظيمة، فأمرني فيها يومًا ببعض ما يريد، فخرجتُ إليها فمررتُ بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها يصلون، وكنت لا أدري ما أمرُ الناس، لحبْس أبي إياي، فلما سمعتُ أصواتهم، دخلتُ عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبَتني صلاتهم، ورغبتُ في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فسألتُهم: أين أصْل هذا الدين؟ … قالوا: بالشام!

فقلتُ لهم: إذا قدم عليكم ركْب من «الشام» فأخبروني … ثم رجعتُ إلى أبي، وقد غربَت الشمس، فسألني أين كنت … فأخبرتُه بما رأيتُ فقال: أيْ بُني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قلتُ: كلا والله إنه لخير من ديننا. فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته.

فبعثَت إليَّ النصارى، فأخبروني بقدوم ركْب من تجار الشام، فألقيتُ الحديد من رجلَي وخرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام فسألتُ: مَن أفضل أهل هذا الدين علمًا؟ … قالوا: الأسقف في الكنيسة. فجئتُه، فقلتُ له: إني قد رغبتُ في هذا الدين، فأحببتُ أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك؛ فأتعلم منك، وأصلي معك. قال: ادخل! … فدخلتُ معه، وكان رجلَ سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها؛ فإذا جمعوا إليه شيئًا منها اكتنزه لنفسه، ولم يعطِه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق، فأبغضتُه بغضًا شديدًا، ثم مات.

فاجتمعَت إليه النصارى ليدفنوه؛ فأخبرتُهم عمَّا رأيتُه يصنع، وأريتهم موضع كنزه، فلما استخرجوه قالوا: والله لا ندفنه أبدًا. فصلبوه ورجموه بالحجارة وجاءوا برجلٍ آخر فجعلوه مكانه، فما رأيتُ أزهد منه في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب في الصلاة ليلًا ولا نهارًا منه، فأحببتُه حبًّا لم أحببه شيئًا قبله، فأقمتُ معه زمانًا، ثم حضرَته الوفاة،

فقلت له: لقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وبمَ تأمرني؟ … قال: يا بني والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدَّلوا وتركوا ما كانوا عليه، إلا رجلًا بـ «الموصل»، دلَّني عليه، وأوصاني أن ألحق به.

ثم مات وغُيِّب، فلحقتُ بصاحب «الموصل»، وأخبرتُه بما كان من أمري، فقال لي: أقِم عندي. فأقمتُ عنده فوجدتُه خير رجل، ولم يلبث أن حضرَته الوفاة، فأوصاني أن ألحق برجل من أهل «نصيبين»، ففعلتُ.

ثم حضر موت صاحب «نصيبين» أيضًا، فأمرني بالذهاب إلى رجل بـ «عمورية» من أرض الروم، فلحقتُ بصاحب «عمورية»، فأقمتُ عند خير رجل على هدْي أصحابه، واكتسبتُ عنده حتى كانت لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فسألتُه: إلى من توصي بي؟ فقال: يا بني، والله ما أعلم اليوم أحدًا على مِثل ما كنا عليه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين «إبراهيم» عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجرًا إلى أرضٍ بين حرَّتَين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعل!

ثم مات وغُيِّب، فمكثتُ بـ «عمورية» حتى مرَّ بي نفرٌ تجار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه، وغنيمتي هذه. قالوا: نعم! … فأعطيتهم إياها، وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني لرجلٍ يهودي عبدًا، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوتُ أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي. فبينما أنا عنده، إذ قدم عليه من المدينة ابن عمه وهو سيدي «عازر» هذا، فابتاعني منه واحتملني إلى هنا، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها حتى عرفتُها بصفة صاحبي!

اليهودي عازر (يُقبل)**:** ما بالكما قد تركتُما العمل في رأس الغدق، وجلستُما هذا المجلس، أيها الخاسران؟

(سلمان ينهض في الحال، ويعتلي النخلة، ويقوم زميله إلى نخلة أخرى.)

عازر (للعبد)**:** ماذا كان يقص عليك هذا النصراني؟

(العبد لا يجيب.)

عازر: إني لم أبتعكما بالمال كي تجلسا وتتناجيا تحت النخيل، والله إني لأعرف لكما دواءً ناجعًا؛ الجوع!

اليهودي رافع (يُقبل صائحًا)**:** يا عازر!

عازر: ما لك يا «رافع»؟

رافع: قاتل الله «بني قَيلة»! ... والله إنهم الآن لمجتمعون على رجل، قدم عليهم من «مكة» يزعمون أنه نبي!

سلمان (وقد سمع ذلك من أعلى النخلة يرتعد، وينزل عن النخلة مقبِلًا على رافع)**:** ماذا تقول؟

عازر (يلكم سلمان لكمةً شديدة)**:** ما لك ولهذا؟ ... أقبِل على عملك!

سلمان: لا شيء، إنما أردتُ أن أستثبته عمَّا قال!

عازر (في عنف)**:** اذهب إلى عملك!

المنظر الثالث

(في المسجد ... محمد يخطب، والناس يستمعون.)

محمد: الحمد الله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضل له، ومن يُضلَّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ... أما بعد ...

أيها الناس! ... فقدِّموا لأنفسكم ... تعلمُن والله ليُصعقَن أحدكم، ثم ليدَعَن غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولَن له ربه وليس له ترجُمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتِك رسولي فبلَّغك وآتَيتُك مالًا، وأفضلتُ عليك فما قدَّمتَ لنفسك، فلينظُرن يمينًا وشمالًا، فلا يرى شيئًا، ثم لينظُرن قدَّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقٍّ من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمةٍ طيبة، فإن بها تُجزَى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله، ورحمة الله وبركاته!

(الحصين بن سلام يزحف حتى يدنو من النبي، ويهمس إليه ...)

الحصين: يا رسول الله! ... إني كما تعلم يهودي وقد أسلمتُ ... ولكن «يهود» قوم بهتٍ، وإني أحب أن تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني!

(يبتعد عن النبي خفية، كما دنا بدون أن يلحظه أحد.)

محمد: يا معشر «يهود»! … أي رجل «الحصين بن سلام» فيكم؟

اليهود: هو سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا!

الحصين (ينهض إليهم)**:** يا معشر «يهود»! … اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به «محمد»؛ فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته!

اليهود (في عجب)**:** أوَقد أسلمت؟

الحصين: نعم … وإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأصدِّقه وأعرفه!

اليهود (كلهم في غضب)**:** كذبتَ! … كذبتَ!

شمويل: ما هذا بالنبي الذي كنا نذكره وننتظر بعثه! … وما جاءنا بشيء نعرفه!

أشيع (صائحًا في قومه)**:** إن «الحصين» قد أفسد علينا!

فنحاص (صائحًا كذلك)**:** إن الحصين لمن أشرارنا، ولو كان من أخيارنا ما ترك دين آبائه، وذهب إلى غيره!

الحصين (للنبي)**:** ألم أخبرْك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور!

فنحاص (للحصين)**:** إنما الكاذب الغادر الفاجر أنت! … لقد اتبعتَ «محمدًا» الذي يريد منا أن نعبده كما تعبد النصارى «عيسى ابن مريم»!

(نصراني من أهل نجران ينهض ويلتفت إلى محمد.)

النصراني: أوَذاك تريد منا يا «محمد»، وإليه تدعونا؟

محمد: معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثني الله ولا أمرني!

أبو بكر: ويحك يا «فنحاص»! … اتقِ الله، فوالله إنك لتعلم أن «محمدًا» لرسول الله، وقد جاءكم بالحق!

فنحاص: أليس هو الذي يقول: إن الله يجزي الحسنة عشرة أمثالها؟!

أبو بكر: نعم.

فنحاص: والله يا «أبا بكر» ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، أليس يأخذ منا الحسنة بعشر أمثالها؟ … فهو ينهانا عن الربا ويعطيناه!

(أبو بكر في غضبٍ شديد، يضرب وجه فنحاص.)

فنحاص (يصيح)**:** يا «محمد»! … انظر ما صنع بي صاحبك؟!

محمد (لأبي بكر)**:** ما حملك على ما صنعتَ؟

أبو بكر: يا رسول الله! … إن عدو الله قال قولًا عظيمًا!

محمد (يتلو)**:** ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أحد الأحبار: يا «محمد» أرأيتَ قولك … ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ إيانا تريد أم قومك؟

محمد: كُلًّا …

الحبر: إنك تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة، فيها بيان كل شيء!

محمد: إنها في علم الله قليل!

الحبر: وما علم الله؟

محمد (يتلو)**:** ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ …

شمويل: ما مدة الدنيا؟

أشيع: إنا نقول: إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة!

الحبر: نعم يا «محمد»! … أخبِرْنا متى الساعة، إن كنت نبيًّا؛ كما تقول!

محمد (يتلو)**:** ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ …

الحبر: يا محمد! … تقول إن هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله!

(محمد يغضب حتى ينتقع لونه، ثم يسمع صوت جبريل …)

جبريل (هامسًا في أذن محمد)**:** خفِّض عليك يا «محمد»!

(محمد يسكن غضبه ويصغي إلى جبريل، ثم يتلو على الناس …)

محمد (يتلو)**:** ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ❋ اللهُ الصَّمَدُ ❋ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ❋ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

شوميل: صف لنا يا «محمد» كيف خَلقه؟ … كيف ذراعه؟ … كيف عضده؟

(محمد ينتفض غضبًا.)

جبريل (همسًا)**:** خفِّض عليك يا «محمد»!

محمد (يُصغي إلى جبريل ويتلو)**:** ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أشيع: يا «محمد» ... ومن تؤمن به من الرسل؟

محمد: «نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى «إبراهيم» و«إسماعيل» و«إسحاق»، و«يعقوب» و«الأسباط» وما أوتي «موسى» و«عيسى»، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون!»

شمويل: أتؤمن بـ «عيسى ابن مريم»؟

أشيع: إنا لا نؤمن بعيسى ابن مريم، ولا بمن آمن به!

نصارى نجران (ينهضون)**:** وإنا والله لا نؤمن بـ «موسى بن عمران»، ولا بمن آمن به!

اليهود (ينهضون)**:** ما أنزل الله من كتاب بعد «موسى»، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده!

النصارى (لليهود)**:** كذبتم يا من أسلمتم «عيسى» للصلب! ... ما أنزل الله «التوراة» وإنما «الإنجيل» هو كتابه المنزَّل!

محمد (يتلو متوجهًا إلى النصارى واليهود)**:** ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ...

النصارى: يا «محمد»! ... إنا نتركك على دينك، واتركنا على ديننا!

(ينصرفون، وينصرف اليهود كذلك.)

(سلمان الفارسي يدخل حاملًا سلةً كبيرة ويقف بين يدي النبي.)

سلمان: إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم!

(يُخرج طعامًا من السلة، ويقربه إلى النبي.)

محمد (لأصحابه)**:** كلوا!

أبو بكر (يلتفت حوله)**:** أين «عمر»؟

حمزة: «عمر بن الخطاب»؟ إنه ذهب يشتري خشبتَين للناقوس!

سلمان (همسًا لأبي بكر مشيرًا إلى النبي)**:** إنه لم يأكل!

أبو بكر (لسلمان)**:** إن رسول الله لا يأكل الصدقة!

سلمان (لنفسه فرحًا)**:** هذه واحدة ... (يُخرج من السلة شيئًا آخر، ويقدِّمه إلى النبي) إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها!

محمد (يتناول منها ويأكل)**:** بسم الله!

(سلمان يكب على رسول الله يقبله ويبكي.)

سلمان (صائحًا)**:** اللهم أحمدك! اللهم أحمدك!

محمد: ما شأنك يا هذا؟

سلمان: لقد وجدتُ النبي الذي أُخبِرتُ به!

محمد: من أهل أي البلاد أنت؟

سلمان: من «فارس» يا رسول الله، وأُدعَى «سلمان»، وقد خرجتُ من بلادي، وكنت غلامًا حديثًا أبغي دين الحق، حتى وجدتُك آخر الأمر، ولكن الرق يشغلني عنك!

محمد: الرق!

سلمان: نعم!

محمد: كاتبْ يا «سلمان»!

سلمان: سأكاتب صاحبي اليهودي، على نخيلٍ أحيِيه له؛ إذ لا مال عندي أشتري به نفسي!

محمد (لأصحابه)**:** أعينوا أخاكم!

أبو بكر (لسلمان)**:** نعم ... نُعينُك بالنخل، كل رجل بما عنده من ودية، ونُفَقِّر لها الأرض لنغرس فيها.

محمد: اذهب يا «سلمان» ففقِّر لها، فإذا فرغتَ فائتني، أكن أنا أضعها بيدي.

(سلمان يقبِّل يدَي النبي ويخرج ... يقدم عمر بن الخطاب.)

أبو بكر (لعمر)**:** أجئت بخشبة الناقوس كي ندعو إلى الصلاة؟

عمر: كلا!

أبو بكر: لماذا؟

عمر (للنبي)**:** يا رسول الله! ... لقد طاف بي هذه الليلة طائف يهتف: «لا تجعلوا الناقوس، بل أذنوا للصلاة»!

صوت بلال (يؤذِّن خارج المسجد)**:** الله أكبر! ... الله أكبر!

عمر (دهشًا)**:** عجبًا ... هذا «بلال» يؤذن؟!

محمد (لعمر باسمًا)**:** قد سبقك بذلك الوحي!

عمر: والله ما كرهتُ شيئًا مثل أن نجعل بوقًا كبوق «يهود» الذي يدعون به لصلاتهم، ولا مثل الناقوس.

صوت بلال (من الخارج يمضي في أذانه)**:** أشهد أن لا إله إلا الله! ... أشهد أن لا إله إلا الله! ... أشهد أن محمدًا رسول الله! ... أشهد أن محمدًا رسول الله! ... حي على الصلاة! ... حي على الصلاة! ... حي على الفلاح! ... حي على الفلاح! ... الله أكبر! ... الله أكبر! ... لا إله إلا الله!

المنظر الرابع

(جمع من الناس عند مساكن النبي ... أحد الأنصار يدنو من أحد المهاجرين.)

الأنصاري: ما الخبر!

المهاجري: رسول الله يتزوج بـ «عائشة»!

الأنصاري: بنت «أبي بكر»؟!

المهاجري: نعم! ... ولقد خطبها يوم كان بـ «مكة».

الأنصاري: على الخير والبركة!

المهاجري: وعلى خير طائر!

الأنصاري: أهي بكر؟

المهاجري: نعم! ... هي بنت عشر سنين.

الأنصاري: لقد شاء الله أن يتزوج رسوله «خديجة»، وهي ثيب في الأربعين، وأن يتزوج اليوم «عائشة»؛ وهي بكر، بنت عشر سنين!

المنظر الخامس

(نفر من المهاجرين بينهم عمر وأبو بكر، بجوار المسجد يتحدثون ...)

عمر: أما ترى هذا يا «أبا بكر»؟

أبو بكر: نعم ... والله إني لأرى ما ترى ... إن أهل المدينة ليحق لهم أن يبرموا بنا!

عمر: إنا — معشر المهاجرين — قد لبثنا فيهم نيفًا وثمانية عشر شهرًا، نأكل من أموالهم!

أبو بكر: لقد تركْنا أموالنا بمكة، مع من تركْنا من أهلنا!

عمر: وما عاقبة الأمر؟ ... إني أخشى ألا يصبر «الأنصار» على هذه الحال أكثر مما صبروا! ... ألا ترى لنا رأيًا؟

بلال (يُقبل سريعًا)**:** أما سمعتم؟

أبو بكر: ماذا؟!

بلال: «أبو سفيان بن حرب» مقبِل من الشام في عيرٍ عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجاراتهم!

عمر (وقد لمعَت في رأسه فكرة)**:** وكم فيها من رجال؟

بلال: ثلاثون رجلًا من «قريش» أو أربعون!

عمر: قد بدا لي رأي!

أبو بكر: قُل! ... أسمع!

عمر: أرى أن نعرض لهذا المال ... لقد أخرجَتنا «قريش» من ديارنا وجرَّدَتنا من أهلنا ومالنا؛ فإن نُصِبْ هذه العير فهي بعض حقنا، ومال بمال!

أبو بكر: ألا نستأذن رسول الله؟

عمر: بلى ... قُم إلى رسول الله فكلمه!

(أبو بكر ينهض، ويذهب من فوره.)

بلال: عسى أن يأذن رسول الله!

عمر: إن شاء الله؛ فإنه يأذن، إنا — معشر المهاجرين — لا نرضى أن يحتملنا الأنصار على كواهلهم أكثر مما احتملوا، فلقد أدَّوا لنا ما عليهم وآن لنا أن ننفق مما يعطينا الله!

بلال: «رسول الله» و«أبو بكر» قادمان!

(ينهض الجميع؛ لاستقبال الرسول.)

عمر: والله إني لأرى في وجه رسول الله أنه قد سبقَنا إلى هذا الرأي!

أبو بكر: يا معشر المسلمين!

محمد (وقد اجتمع إليه المسلمون)**:** هذه عير «قريش» فيها أموالكم فاخرجوا إليها، لعل الله أن يغنمكموها!

المنظر السادس

(في مكة ... بجوار الكعبة وعاتكة بنت عبد المطلب تُحادث أخاها العباس بن عبد المطلب.)

عاتكة: يا أخي! ... والله لقد رأيتُ الليلة رؤيا أفظعَتني، وتخوفتُ أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم عني ما أحدثك به!

العباس: وما رأيتِ؟

عاتكة: رأيت راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: «ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلَت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت، فما بقي بيت من بيوت «مكة» ولا دار إلا دخلَتها منها فلقة!»

العباس: والله إن هذه لرؤيا، وأنتِ فاكتميها ولا تذكريها لأحد!

عاتكة: لن أذكرها لأحد!

(تنصرف.)

(يقبِل الوليد بن عتبة.)

الوليد (للعباس)**:** ما لك يا «أبا الفضل»؟

العباس: لا شيء ... أردتُ أن أطوف بالكعبة!

الوليد: أرى في وجهك شيئًا لا عهد لي به!

العباس: أأقول لك وتكتم عني؟

الوليد: نعم!

العباس: لقد رأت أختي «عاتكة» رؤيا أفظعَتني، وتخوفَت أن يدخل على القوم منها شر!

الوليد: وما رأت؟

العباس: رأت راكبًا أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: «ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم.» فإذا الناس اجتمعَت إليه، فأخذ صخرة فأرسلها، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت، فما بقي بيت إلا دخلَته منها فلقة!

الوليد: إنها والله لرؤيا!

العباس: اكتُمها ولا تذكرها لأحد!

الوليد: لن أذكرها لأحد!

العباس: إني ذاهبٌ أطوف.

(ينصرف.)

(يقبل عتبة بن ربيعة.)

عتبة (للوليد): ما تصنع هنا؟

الوليد: كان معي «العباس»!

عتبة: وأين ذهب؟

الوليد: ذهب يطوف، وقد ألقى إليَّ حديثًا عجبًا! ... أقول لك وتكتُم؟

عتبة: نعم!

الوليد: لقد رأت أخته «عاتكة» رؤيا.

عتبة: ماذا رأت؟

الوليد (وهما منصرفان): رأت راكبًا أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح!

(يذهبان.)

(يقبل أمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.)

أمية: أما جاء خبر عن «أبي سفيان»؟

عقبة: لقد خرج من الشام!

أمية: عائدًا إلى «مكة»؟

عقبة: نعم!

النضر : وقد ربحَت تجارتنا ربحًا عظيمًا!

أمية: هل لك مال فيها يا «ابن الحارث»؟

النضر : نعم ... وأنت؟

أمية: وأنا؟!

عقبة: ما أحسب أحدًا من «قريش» إلا وله فيها نصيب!

أمية (يلتفت إلى الجهة التي ذهب منها الوليد وعتبة)**:** أبو الحكم مقبل.

عقبة (يلتفت)**:** ما له يضحك في هذا النفر حوله؟

أبو جهل (يقبِل في رهط)**:** أما سمعتم يا معشر «قريش»؟

أمية: ماذا؟

أبو جهل: رؤيا «عاتكة بنت عبد المطلب»!

أمية (وكذلك النضر وعقبة)**:** لم نسمع!

أبو جهل: لقد رأت «عاتكة» في نومها راكبًا أقبل على بعير له، بالأبطح صارخًا: «ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم.» تجتمع، وإذا صخرة تهوي بأسفل الجبل، فما بقي دار إلا دخلَتها منها فلقة!

أمية: من أخبرك بهذا؟

أبو جهل: الناس كلها تتحدث به!

عقبة: هذا أخوها «العباس» خارجًا من «الكعبة»!

أمية (يصيح بالعباس)**:** يا «أبا الفضل»!

(العباس يقبِل عليهم.)

أبو جهل (للعباس متهكمًا ساخرًا)**:** يا «بني عبد المطلب»! ... متى حدَّثَت فيكم هذه النبية المرسلة!

العباس (في تجهم)**:** وما ذاك؟

أبو جهل: تلك الرؤيا التي رأت «عاتكة»!

العباس: وما رأت؟

أبو جهل: يا «بني عبد المطلب»! ... أما رضيتُم أن يتنبأ رجالكم، حتى تتنبأ نساؤكم؟!

العباس: ماذا تعني يا «أبا الحكم»؟

أبو جهل: زعمَت «عاتكة» في رؤياها أن راكب البعير قال: «انفروا لمصارعكم فسنتربص بكم.» فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون، وإن لم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب!

العباس: إني ما أحسبها قد رأت شيئًا؛ إنما هو قولٌ يتقوَّلون به عليها!
عقبة (يلتفت)**:** انظروا! ... ببطن الوادي!
الجميع (يلتفون)**:** ماذا؟
النضر: هذا واللات رجلٌ واقف على بعيره!

(عقبة وقد جدع بعيره، وهو يشق قميصه ويصرخ ...)

أبو جهل: هذا صوت «ضمضم الغفاري»!
أمية: نعم ... لعله آتٍ من الشام! ... استمِعوا له!
ضمضم (على بعيره يصرخ)**:** يا معشر قريش! ... اللطيمة، اللطيمة! ... أموالكم مع «أبي سفيان» قد عرض لها «محمد» في أصحابه ... لا أرى أن تدركوها ... الغوث! ... الغوث!
أمية: أموالنا؟!
أبو جهل: «محمد»؟!
عقبة: واللات، إنها للحرب بيننا وبين هذا الرجل!
أبو جهل (صائحًا)**:** أيها الناس! ... تجهزوا سراعًا؛ فإنما هي الحرب!

المنظر السابع

(في وادي ذفران ... محمد في رجاله.)

أبو بكر: لقد جاء الخبر عن «قريش» بمسيرهم؛ ليمنعوا غيرهم!
عمر: إنها والله للحرب بيننا وبين «مكة»!
محمد: أشيروا عليَّ أيها الناس!

(المقداد بن عمرو ينهض من بين القوم.)

المقداد: يا رسول الله! ... امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت «بنو إسرائيل» لـ «موسى» ... ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون!

(يجلس.)

محمد (وعينه إلى طائفة الأنصار): أشيروا عليَّ أيها الناس؟

(سعد بن معاذ ينهض من بين طائفة الأنصار.)

سعد: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله!

محمد: أجل!

سعد: لقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة!

أبو بكر: تريدون بيعة «العقبة»؟

سعد: أجل!

عمر: إن رسول الله يتخوَّف ألا تكونوا — معشر الأنصار — ترَون عليكم نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليكم أن يسير بكم من بلادكم إلى عدو!

سعد (يلتفت إلى محمد): والذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخُضْناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تَلَقَى بنا عدونا غدًا؛ إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله!

محمد (وقد سُر مما سمع ونشطه ذلك): سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم!

(يقبِل الزبير بن العوام ومعه شيخ.)

أبو بكر: ممن الشيخ؟

الزبير: هذا شيخ من العرب، اعترضتُه وجئتُ به، علَّه يخبرنا بخبر القوم؟

عمر (للشيخ): أيها الشيخ: أخبرنا عن «قريش» وعن «محمد» وأصحابه، أما بلغك عنهم شيء؟

الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممن أنتم؟

محمد: إذا أخبرْتَنا أخبرناك!

الشيخ: أوَذاك بذاك؟

محمد: نعم!

الشيخ: إنه بلغني أن «محمدًا» وأصحابه خرجوا يوم الاثنين لثمان ليالٍ خلَون من شهر رمضان، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بوادي «ذفران»!

أبو بكر: و«قريش»؟

الشيخ: و«قريش» ... بلغني أنهم خرجوا يوم الجمعة لثمانٍ وعشرين ليلة خلَت من «شعبان»؛ فإن كان الذي أخبرني صدقني؛ فهم اليوم قادمون وراء هذا الكثيب.

الزبير (وهو يذهب به)**:** جزاك الله خيرًا أيها الشيخ!

الشيخ: ممن أنتم؟

محمد: نحن من ماء.

(ثم ينتحي ويصلي.)

الشيخ (وهو منصرف مع الزبير)**:** من ماء؟ ... أمِن ماء العراق؟!

(يجذبه الزبير ويذهبان بعيدًا.)

عمر: أوَلم يرجع عليٌّ بعد؟

سعد: أين هو؟

عمر: لقد بعثه رسول الله في نفر من أصحابه إلى ماء «بدر» يلتمسون الخبر!

سعد (يلتفت)**:** أليس هو القادم مع رجلين معه؟!

عمر (يلتفت)**:** بلى!

(يقدم «علي» وأصحابه ومعه غلامان.)

سعد (لعلي)**:** ممن الغلامان؟

علي: سلوهما!

عمر (للغلامين)**:** ممن أنتما؟

الغلامان: نحن سقاة «قريش» بعثونا نسقيهم من الماء!

عمر: بل أنتما لـ «أبي سفيان»!

الغلامان: كلا!

سعد: أخبِرانا أين ركْبه وماله وتجارته؟

الغلامان: نحن سُقاة «قريش»!

سعد: إنكما تكذبان ... أنتما لـ «أبي سفيان»!

(يضربهما هو والأنصار.)

الغلامان (والضرب ينهال عليهما)**:** نحن لـ «أبي سفيان» ... نحن لـ «أبي سفيان»!

(يتركونهما.)

سعد: دعوهما! ... لقد أقرَّا!

محمد (يختتم صلاته وينهض إليهم)**:** إذا صدَقاكم ضربتموهما، وإذا كذَباكم تركتموهما، صدَقَا والله ... إنهما لقريش! ... (للغلامين) أخبِراني عن «قريش»!

الغلامان: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى!

محمد: كم القوم؟

الغلامان: كثير! ... وقد خرجوا بالدفوف والقيان!

محمد: ما عدَّتهم؟

الغلامان: لا ندري!

محمد: كم ينحرون كل يوم؟

الغلامان: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا.

محمد (لأصحابه)**:** القوم فيما بين التسعمائة والألف!

أبو بكر: نعم! ... كل مائة نفر يأكلون في اليوم بعيرًا!

محمد (للغلامين)**:** من فيهم من أشراف «قريش»؟

الغلامان: «أبو جهل بن هشام»، و«أمية بن خلف»، و«عتبة بن ربيعة»، و«النضر بن الحارث»، وغيرهم!

محمد (لأصحابه)**:** هذه «مكة» قد ألقَت إليكم أفلاذ كبدها!

عمر (للغلامين)**:** كم خيلهم؟

الغلامان: مائة فرس!

سعد (كالمخاطب لنفسه)**:** ونحن ما لنا غير فرسَين!

عمر (للغلامين)**:** وكم عيرهم؟

الغلامان: عدد الرمل والحصى!

أبو لبابة (كالمخاطب نفسه)**:** وكل ما لدينا سبعون بعيرًا!

محمد (يأمر بالسير)**:** سِيروا على بركة الله!

عمر: أرى يا رسول الله أن يكون كل ثلاثة منا على بعير!

محمد: نعم!

عمر (يصيح في الناس)**:** إلى العير! ... كل ثلاثة على بعير!

(القوم يقومون إلى عيرهم.)

أبو بكر: وأنت يا رسول الله؟

(محمد يلتفت إلى جواره فيرى عليًّا وأبا لبابة بينهما بعير.)

محمد: أنا مع «علي» و«أبي لبابة» اركبا!
أبو لبابة: اركب أنت يا رسول الله!
علي: اركب حتى نمشي عنك!
محمد: اركبا! ... ما أنتما بأقوى على المشي مني، وما أنا أغنى عن الأجر منكما!
عمر (يصيح في الناس)**:** إلى بدر! ... إلى بدر!
محمد (يرفع رأسه إلى السماء)**:** اللهم إنهم حفاة فاحملهم! ... اللهم إنهم عراة فاكسهم! ... اللهم إنهم جياع فأشبعهم!

المنظر الثامن

(ماء بدر ... قلُب ماءٍ عديدة بالوادي بينها قليب أمامه كثيب ... أبو سفيان بن حرب ينزل بالماء حذرًا.)

أبو سفيان (لأحد الرعاة)**:** هل أحسستَ أحدًا؟
الراعي: ما رأيتُ أحدًا أنكره، إلا أني قد رأيتُ رجالًا ثلاثة قد أناخوا إلى هذا التل، ثم انطلَقوا مع غلامَين من سُقاة الماء!
أبو سفيان: أرني مناخهم!
الراعي (يشير له إلى مكانٍ بالوادي)**:** هنا كان مناخ بعيرهم!

(أبو سفيان ينحني ويلتقط بعرًا من أبعار الإبل؛ ويفتُّه بأصبعه، فيجد فيه نوى.)

أبو سفيان: علائف «يثرب»!
الراعي: أرأيتَ فيها نوى نخيلها؟
أبو سفيان (كالمخاطب لنفسه)**:** نعم ... هذه واللات عيون «محمد»!

(يرجع إلى عيره سريعًا، ويرتحل من فوره مع أصحابه بعيدًا عن الطريق المألوف.)

الراعي (لنفسه): ما لهذا الرجل قد ضرب وجوه عيره عن الطريق وانطلق سريعًا؟!

(ينصرف.)

(محمد وأصحابه يقدمون.)

محمد: هنا فانزلوا!

(الحباب بن المنذر يسرع إلى محمد.)

الحباب: ننزل هذا المكان؟

محمد: نعم!

الحباب: يا رسول الله! … أرأيت هذا المكان، أمنزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

محمد: بل هو الرأي والحرب والمكيدة!

الحباب: يا رسول الله! … إن هذا ليس بمنزل، فسِر بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، فإني عالم بها وبقلُبها، بها قليب قد عرفتُ عذوبة مائه، لا ينزح، فنغوِّر ما سواه من القلُب، ثم نبني عليه حوضًا ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون!

محمد: لقد أشرتَ بالرأي!

الحباب (يسير بالقوم إلى القليب): هو هذا «القليب» … هنا فلننزل!

(محمد ينزل، وينزل معه الناس.)

عمر (للحباب): خذ بعض القوم وابنوا الحوض.

(الحباب يسير ببعض الناس؛ ليفعل ما أشار به.)

أبو بكر (لعمر): ألا فلنجعل الرجال في صفوف!

(سعد بن معاذ يدنو من محمد.)

سعد: يا نبي الله! … ألا نبني لك عريشًا تكون فيه؟ … ونعد عندك ركائبك، ثم نلقَى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرَنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك، فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا بالمدينة!

محمد: جزاك الله خيرًا يا «سعد»!

أبو بكر (لسعد)**:** انطلِق مع بعض الرجال وابنوا العريش!

(سعد يسير ببعض الناس، ويبنون عريشًا من جريد.)

محمد: استووا، صفًّا صفًّا!

(يصفف رجاله.)

أبو بكر (للرجال)**:** افعلوا كما أمركم رسول الله!

(محمد في يده عود يشير به لبعض الرجال؛ كي يعدل الصف.)

محمد: أنت تقدَّم!

أحد الرجال: أنا؟

محمد: نعم … (لرجلٍ آخر) وأنت تأخر!

سواد بن غزية (وهو مستنصل عن الصف)**:** يا رسول الله!

محمد (يطعن بالعود في بطن سواد)**:** استوِ يا «سواد»!

سواد: يا رسول الله! … أوجعتَني وقد بعثك الله بالحق والعدل!

محمد: استوِ!

سواد: أصبرني يا رسول الله، ومكنِّي من نفسك لأقتص منك!

محمد: اصبر!

سواد: إن عليك قميصًا، وليس عليَّ قميص!

(محمد يرفع قميصه، فيعتنقه «سواد» ويقبل بطنه.)

محمد: ما حمَلك على هذا يا «سواد»؟

سواد: يا رسول الله! … حضر ما ترى؛ فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك!

محمد (باسمًا)**:** جزاك الله خيرًا يا «سواد»!

الحباب (يقدم وقد بنى الحوض)**:** لقد بنَينا الحوض، وقذفْنا فيه الآنية؛ فوالله ما يشرب منه رجل منهم إلا يُقتَل!

علي (يصيح)**:** انظروا إلى الكثيب، لقد أتَوا!

أبو بكر (يلتفت)**:** نعم ... هذا الكثيب ... إنهم يجيئون منه إلى الوادي!

محمد (وجهه إلى السماء)**:** اللهم هذه «قريش» قد أقبلَت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتُكذِّب رسولك! ... اللهم فنصرك الذي وعدتَني! ... اللهم أحنهم الغداة!

(قريش تظهر على الكثيب وتصوب أنظارها في الوادي.)

أبو جهل (يرى محمدًا وجيشه)**:** هذا «محمد» وأصحابه!

أمية بن خلف (يلتفت إلى عمير بن وهب)**:** يا «عمير»! ... احزر لنا أصحاب «محمد»!

عمير (يصوب في الوادي)**:** ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون. ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟

(يذهب فيضرب في الوادي.)

عتبة بن ربيعة: أما سمعتم بما يقول «جهيم بن عبد المطلب»؟

أمية: ماذا يقول؟

عتبة: رؤيا قد رآها!

أبو جهل: رؤيا؟!

عتبة (ينادي)**:** يا «جهيم»! ... أقبِل وقص علينا رؤياك!

جهيم (يقبِل)**:** إني رأيت فيما يرى النائم، وإني لبين النائم واليقظان، إذ نظرتُ إلى رجل قد أقبل على فرس، حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: قُتِل «عتبة بن ربيعة» و«شيبة بن ربيعة» و«أبو الحكم بن هشام» و«أمية بن خلف»، ثم رأيتُه ضرب في لبَّة بعيره ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبِيَة العسكر إلا أصابه نَضح من دمه!

أبو جهل: وهذا أيضًا نبيٌّ آخر من «بني عبد المطلب»!

جهيم: والله لقد ذكرتُ ما رأيت!

أبو جهل: ستعلم اليوم من المقتول، إن نحن التقَينا!

(عمير يعود.)

أمية: ماذا وجدتَ يا «عمير»؟

عمير: ما وجدتُ شيئًا، ولكني رأيتُ — يا معشر قريش — البلايا تحمل المنايا ... نواضح «يثرب» تحمل الموت الناقع ... قومٌ ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترَونهم خُرسًا لا يتكلمون، يتلمظون تلمُّظ الأفاعي؟ ... والله ما أرى أن يُقتَل منهم رجل؛ حتى يُقتَل منا رجل، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير العيش بعد ذلك! ... فرَوْا رأيكم!

شيبة (يتقدم إليهم)**:** لقد جاء نبأ من «أبي سفيان» أنه أحرز عيره ونجا بها!

أمية: أوَبعث أحدًا؟!

شيبة (يشير إلى فارسٍ خلفه)**:** نعم ... هذا هو رسوله!

الفارس (يتقدم)**:** لقد أرسلَني إليكم «أبو سفيان» ... أقول لكم إنكم إنما خرجتُم؛ لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم؛ فقد نجا بها؛ فارجعوا!

أبو جهل: نرجع؟! ... واللات لا نرجع حتى نرِدَ سواد «بدر» فننحر الجزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ... فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها!

أمية: واللات والعزى، لا نرجع حتى نقرن «محمدًا» وأصحابه بالحبال فامضوا!

عمير (يلتفت إلى جيش محمد)**:** كيف نمضي؟ ... إن «محمدًا» وأصحابه قد جعلوا لأنفسهم حوضًا على هذا «القليب» يذودون عنه، ولا ماء لدينا، وقد غوَّروا ما سواه من القلُب!

أبو جهل: فلنحمل عليهم!

عمير: واللات لو فعلْنا لرمَونا بالنبل!

(يخرج الأسود المخزومي.)

المخزومي (يصيح)**:** أعاهد اللات لأشربَن من حوضهم، أو لأهدمَنه، أو لأموتَن دونه!

(يخرج صائحًا منطلقًا إلى القليب فيراه حمزة بن عبد المطلب في صفوف النبي فيتبعه.)

حمزة (صائحًا)**:** خُذْها يا عدو الله!

(ثم يضربه بسيفه ضربة تطن قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض فيقع المخزومي على ظهره، وتشخب رجله دمًا فيحبو إلى الحوض، ويقتحمه فيتبعه حمزة، ويضربه حتى يقتله في الحوض.)

عتبة (يبرز ويصيح): إلى المبارزة! ... إلى المبارزة!

(يخرج من صفوف النبي ثلاثة من الأنصار للمبارزة.)

الأنصار (صائحين): إلى المبارزة!
عتبة (صائحًا): من أنتم؟
الأنصار: رهط من الأنصار!
قريش (تصيح): ما لنا بكم من حاجة!
عتبة (ينادي): يا «محمد»! ... أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا!
محمد (على باب عريشه ينادي): قم يا «حمزة» قم يا «علي»، قم يا «عبيدة بن الحارث»!

(ينهض الثلاثة ويتقدمون للمبارزة.)

عتبة: من أنتم؟
حمزة: أنا «حمزة بن عبد المطلب»، أسد الله، وأسد رسوله!
عتبة: كفءٌ كريم، وأنا أسد الحلفاء ... من هذا معك؟
حمزة: «علي بن أبي طالب» و«عبيدة بن الحارث»!
عتبة: كفئان كريمان! ... وهذان معي «الوليد» ابني و«شيبة» أخي قم يا «وليد»! ... قم يا «شيبة»!

(يبارز عليٌّ الوليد، فيختلفان ضربتَين ويقتله علي، ويبارز حمزة عتبة فيختلفان ضربتَين ويقتله حمزة، ثم يبارز عبيدة شيبة، فيضرب شيبة رِجل عبيدة، وهو أسن أصحاب النبي، بذباب السيف، فيصيب عضلة ساقه فيقطعها، فيكر حمزة وعليٌّ على شيبة فيقتلانه ويحتملان صاحبهما عبيدة إلى صفوفهم.)

أبو جهل (يصيح في قومه): احملوا عليهم!

محمد (لأصحابه)**:** لا تحملوا حتى آمركم! ... إن اكتنفَكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل!

(يدنو الفريقان، أحدهما من الآخر، وتقذف صفوف النبي بالنبل على قريش.)

أبو بكر (صائحًا)**:** أيها المسلمون! ... اجعلوا شعاركم «أحدٌ ... أحد»!

محمد (يدخل العريش ويرفع رأسه إلى السماء، في قلق وفرَق)**:** يا حي يا قيوم! ... يا حي يا قيوم!

أبو بكر (يتبع محمدًا)**:** يا نبي الله! ... بعضَ مناشدتِك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك!

محمد (ناظرًا إلى السماء)**:** اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبَد!

عمر (يدنو من العريش شاهرًا السيف، ويخاطب سعد بن معاذ)**:** قم يا «سعد» على باب العريش، مع نفر من الأنصار، تحرسون رسول الله بسيوفكم؛ فإني أخاف عليه كرة العدو!

أبو بكر (لعمر في إطراق وحزن)**:** إن العدو كثير!

عمر (في كآبة)**:** ثلاثة أمثالنا ويزيدون!

محمد (في العريش يبتهل)**:** يا حي يا قيوم! ... يا حي يا قيوم! ... يا حي يا قيوم!

(ترتفع بين صفوف النبي صيحة.)

عمر (يلتفت)**:** من هذا؟

أبو بكر (يلتفت)**:** هذا مولاك «مهجع» قد رُمِي بسهم فقُتِل!

عمر: رحمة الله عليك يا «مهجع»!

(صيحة أخرى ترتفع ...)

أبو بكر: انظر! ... هذا «حارثة بن سراقة» رُمِي أيضًا وهو يشرب من الحوض!

عمر (ينظر)**:** نعم ... لقد أصاب السهم نحره!

أبو بكر: رحمتك اللهم! ... رحمتك اللهم!

عمر (في قلق)**:** أخشى أن تكون علينا الدائرة!

محمد (يبتهل وقد تصبب عرقًا)**:** يا حي يا قيوم! ... يا حي يا قيوم! ... يا حي يا قيوم!

(يجلس النبي ويخفق خفقة.)

عمر (جزعًا)**:** ما برسول الله ... انظر!

أبو بكر (همسًا في قلق)**:** صه!

عمر (في صوتٍ خافِت)**:** إن رسول الله قد خفَق!

أبو بكر (في إطراق)**:** نعم!

عمر: أخاف أن يدب الخوَر في أصحابنا!

أبو بكر (كالمخاطب لنفسه)**:** اللهم عونك!

عمر: انظر! ... أليس هذا «ابن الحمام» قد ترك القتال وانتحى، وفي يده تمرات يأكلهن؟!

أبو بكر (ناظرًا إلى السماء)**:** اللهم عونك! ... اللهم عونك!

محمد (ينتبه ويصيح)**:** يا «أبا بكر»! يا «أبا بكر»!

أبو بكر: لبيك يا رسول الله!

محمد: أبشر يا «أبا بكر»! ... أتاك نصر الله ... هذا «جبريل» آخذًا بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع!

أبو بكر (في فرح)**:** أجاءك الوحي في هذه الخفقة يا رسول الله!

محمد: نعم!

أبو بكر (لعمر)**:** أبشروا ... أيها المسلمون!

محمد (يخرج للقوم صائحًا)**:** يا معشر المسلمين شُدُّوا!

المسلمون (يحملون على العدو صائحين)**:** أحد! ... أحد!

محمد (صائحًا)**:** والذي نفس «محمد» بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابرًا محتسِبًا مقبِلًا غير مدبِر؛ إلا أدخله الله الجنة!

ابن الحمام (وفي يده التمرات يأكلهن)**:** بخٍ ... بخٍ ... أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟!

(يشير إلى الأعداء، ثم يقذف التمرات من يده ويأخذ سيفه ويقاتل العدو.)

محمد (يصيح في أصحابه)**:** شدُّوا! ... شدوا!

المسلمون (يقاتلون في حماسة وهم يصيحون)**:** أحد! ... أحد!

محمد (يأخذ حفنة من الحصباء، فيستقبل قريشًا بها): شاهت الوجوه! ... شاهت الوجوه!

عمر (لمعوذ بن عفراء وعبد الرحمن بن عوف): يا «ابن عفراء»! ... عليك بـ «أبي جهل» اجعله من شأنك! ... وأنت يا «ابن عوف» عليك بـ «أمية بن خلف»!

محمد (لأصحابه): من لقي منكم «العباس بن عبد المطلب» فلا يقتله؛ فإنه إنما أُخرج مستكرهًا!

أبو حذيفة (لأحد الأنصار): العباس؟!

الأنصاري: نعم ... عم رسول الله!

أبو حذيفة بن عتبة (صائحًا): أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك «العباس»؟ ... والله لئن لقيتُه لألجمنه السيف!

محمد (لعمر): أسمعتَ؟

(عمر يتميز غيظًا.)

محمد (لعمر): يا «أبا حفص»! ... أيُضرَب وجه عم رسول الله بالسيف؟!

عمر (غير متمالك): يا رسول الله! ... دعني فلأضرب عنق «أبي حذيفة» بالسيف، فوالله لقد نافَق!

محمد (يمسك بعمر): رفقًا به! ... لقد رأى أباه «عتبة» يُقتَل أمام عينه اليوم!

أبو بكر (لعمر): صدق رسول الله يا «عمر»!

محمد (يلتفت إلى المسلمين ويصيح): شدوا! ... شدوا!

المسلمون (في حماسة): أحد! ... أحد!

(يحمى وطيس القتال ويُثخن المسلمون أعداءهم قتلًا وأسرًا وسلبًا، ويستلب عبد الله بن الزبير أدراع أحد القتلى ويأسر أمية بن خلف وابنه.)

عبد الله بن الزبير (رافعًا السيف): هذا أنت يا «أمية بن خلف»!

أمية (لعبد الله): يا «عبد الإله» لا تقتلني! ... إن من أسرني افتديتُ منه بإبلٍ كثيرة اللبن!

عبد الله (يرى ابن أمية بجواره): وهذا ابنك؟

أمية (في تضرع): لا تقتله!

عبد الله (يأخذ بيده، وبيد ابنه)**:** اتبعاني ولا تخشَيا شيئًا!

أمية (ينظر إلى حمزة في المسلمين يطيح رءوس الأعداء)**:** يا «عبد الإله» من الرجل منكم، المعلم بريشة نعامة في صدره؟

عبد الله (ينظر)**:** ذاك «حمزة بن عبد المطلب»!

أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل!

(بلال يرى أمية بن خلف مع عبد الله.)

بلال (يصيح)**:** رأس الكفر «أمية بن خلف» لا نجوتُ إن نجا!

عبد الله (يشير إليه بالصمت)**:** أي «بلال» أسيري!

بلال (يصيح)**:** لا نجوتُ إن نجا!

عبد الله (يحول بين بلال وبين أسيريه)**:** أتسمع يا «ابن السوداء»؟

بلال (يصيح)**:** لا نجوتُ إن نجا! ... (ثم يصرخ بأعلى صوته) يا أنصار الله! ... رأس الكفر «أمية بن خلف»! ... لا نجوتُ إن نجا!

(يأتي ابن عوف مع رهط من المسلمين، ويحيطون بالأسيرَين، ويضرب ابن عوف بسيفه ابنَ أمية بن خلف فيقع.)

أمية (يصيح صيحةً منكرة)**:** ولداه!

عبد الله (لأمية بن خلف)**:** انجُ بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئًا (ثم يبحث عن أدراعه، فيجدها قد ضاعت في الموقعة) أدراعي! ... أين ذهبَت أدراعي؟

ابن عوف (يهبر أمية بسيفه، حتى يفرغ منه كذلك)**:** خُذها يا عدو الله!

بلال (صائحًا في فرح)**:** الحمد لله! ... مات عدو الله! ... أحد! ... أحد!

عبد الله (لبلال)**:** لك الله يا «بلال»! ... ذهبَت أدراعي ... وفجعتَني بأسيري!

بلال (يصيح في حماسة)**:** أحد! ... أحد!

معوذ (باحثًا عن أبي جهل في الصفوف)**:** أين اللعين «أبو جهل»؟

عبد الله: «أبو جهل» لا يُخلَص إليه!

بلال (يصيح)**:** ها هو ذا قد انفرَد، وشُغِل عنه القوم بأنفسهم!

معوذ (يصمد نحو أبي جهل ويضربه فيقع)**:** خذها يا لعين!

أبو جهل: إليَّ يا «عكرمة»!

(يسرع إليه ابنه عكرمة فيضرب معوذًا على عاتقه، فيطرح يده فتتعلق بجلدة من جنبه، فيتركها، ويقاتل وهو يسحبها خلفه حتى تؤذيه، فيضع قدمه عليها، ثم يتمطى بها عليها، حتى يطرحها، ويذهب إلى أبي جهل وبه رمق.)

معوذ: هل أخزاك الله، يا عدو الله؟!

أبو جهل (في حشرجة الموت)**:** وبماذا أخزاني؟ ... أعار على رجل قتلتموه! ... أخبرني لمن الدائرة اليوم؟

معوذ: لله ولرسوله!

(أبو جهل يلفظ النفس الأخير فيجز معوذ رأسه.)

محمد (عند عريشه ينظر إلى أصحابه وقد أسروا عددًا كبيرًا من قريش)**:** إن الغلبة للمسلمين!

سعد: إنهم يأسرون!

محمد (في فرح)**:** مرحى! ... مرحى!

سعد: والله إني ...

محمد: والله لكأنك يا «سعد» تكره ما يصنع القوم!

سعد: أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إليَّ من استبقاء الرجال!

محمد: انظر! ... لقد فر المشركون!

معوذ (يقدم حاملًا رأس أبي جهل)**:** يا رسول الله! ... هذا عدو الله «أبو جهل»!

محمد (مهللًا)**:** الله أكبر ... ذو الملكوت والجبروت!

معوذ: نعم ... الله ذو الملكوت والجبروت!

(ثم يلقي الرأس من يده.)

محمد (في فرح)**:** الله الذي لا إله غيره! ... الله الذي لا إله غيره!

عمر: لقد تم النصر يا رسول الله!

معوذ: وفرَّ من بقي من المشركين قافلين!

أبو بكر (ناظرًا إلى السماء)**:** لربي الحمد! ... لربي الحمد!

سعد: ألا نلقي بجثث القتلى من المشركين في «القليب» يا رسول الله؟

محمد: نعم!

(يجمع سعد ورهط من المسلمين جثث قتلى المشركين، ويُلقون بها في القليب.)

سعد (يقذف بالجثث)**:** هذه جثة «أمية بن خلف» وقد انتفخ في درعه فملأها، وهذه فيما أرى جثة «أبي جهل» بلا رأس!

معوذ (يُلقي إليه برأسه)**:** هذا رأسه!

سعد: وهذه جثة «عتبة»!

(أبو حذيفة بن عتبة يقف ينظر إلى جثة أبيه وهو كئيب قد تغير.)

محمد (يلحظ ذلك منه)**:** يا «أبا حذيفة»، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟

أبو حذيفة (يرفع رأسه)**:** لا والله يا رسول الله، ما شككتُ في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنتُ أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنتُ أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلمَّا رأيتُ ما أصابه، وذكرتُ ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنتُ أرجو له؛ أحزنني ذلك!

محمد (في تأثُّر)**:** جزاك الله خيرًا يا «أبا حذيفة»!

عمر: يا رسول الله! ... ألا نبعث أحدًا إلى المدينة يبشر الناس بنصر الله؟!

محمد: نعم!

أبو بكر (لعمر)**:** فليذهب «زيد بن حارثة» بشيرًا إلى المدينة! ... يخبرهم بسلامة رسول الله والمسلمين!

محمد (يتجه إلى القليب)**:** يا أهل «القليب»! ... بئس عشيرة نبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ ... فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا!

سعد (متعجبًا)**:** يا رسول الله! ... أتنادي قومًا قد جَيَّفوا؟

محمد: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم!

المنظر التاسع

(محمد وعائشة في مسكنهما ليلًا.)

عائشة (باسمة)**:** جئتُ لك بما تحب من الطيب!

محمد (باسمًا)**:** أتدرين ما أطيب الطيب؟

عائشة: ما هو؟

محمد: أطيب الطيب المسك!

عائشة: أدري وربِّ «محمد» أنك تتطيَّب بذكارة الطيب والمسك والعنبر.

محمد: طِيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه!

عائشة (باسمة)**:** وطيب النساء؟

محمد: ما ظهر لونه وخفي ريحه!

عائشة: إني أتطيب لك!

محمد: إنك امرأتي!

عائشة: نعم ... ورب «محمد» إني امرأة رسول الله!

محمد: أتعلمين يا «عائشة»! ... أُريتُك في المنام ثلاث ليالٍ، جاءني بك الملَك في سرَقة من حرير يقول: «هذه امرأتك فاكشف عنها.» فإذا هي أنت!

عائشة: ذلك وحي من عند الله؟

محمد: أجل يا «عائشة» ذلك من عند الله!

عائشة: ألستُ خير النساء عندك!

محمد: و«خديجة»؟

عائشة: ما تذكر من عجوزٍ حمراء الشدقَين هلكَت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها؟!

(محمد يبدو الغضب في وجهه.)

عائشة: أغضبتَ؟

محمد (ناهضًا)**:** والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنَت بي حين كذَّبني الناس، وواسَتني بمالها حين حرَمني الناس!

عائشة (ناهضة صائحة في غضب وغيظ)**:** لكأنه ليس في الأرض امرأة إلا «خديجة»!

(أبو بكر عند الباب.)

أبو بكر: يا رسول الله، أتأذن لي في الدخول؟

محمد: نعم!

أبو بكر (يلتفت إلى ابنته)**:** لقد سمعتكِ تصيحين!

(عائشة مطرقة لا تُجيب.)

أبو بكر (لعائشة)**:** يا «بنت أم رومان»، أترفعين صوتك على رسول الله؟

(يتناولها أبوها.)

محمد (يحُول بينه وبينها)**:** دعْها يا «أبا بكر»!

أبو بكر (متجهم الوجه)**:** إني ذاهب يا رسول الله، وأعود بعد قليل!

(يخرج.)

(يبقى النبي وعائشة وحدهما، مطرقَين صامتَين.)

(عائشة تبكي.)

محمد (يلتفت إليها)**:** ما لك يا «عائشة»؟

عائشة: ورب «إبراهيم» إني ...

محمد (يدنو منها ويرِق لها)**:** ألا ترَين قد حُلتُ بين الرجل وبينك؟

عائشة: ودِدتُ وربِّ «إبراهيم» أني عندك خير مما أكون!

محمد: لا تغضبي!

عائشة: إني لست غضبى!

محمد: إني لأعلم إذا كنتِ عني راضية، وإذا كنتِ عليَّ غضبى!

عائشة: ومن أين تعرف ذلك؟

محمد (باسمًا)**:** إذا كنتِ عني راضية فإنك تقولين ورب «محمد»! ... وإذا كنت عليَّ غضبى قلتِ ورب «إبراهيم»!

عائشة (باسمة)**:** أجل يا رسول الله، والله ما أهجُر إلا اسمك!

محمد: أين خادمتك «بُرَيرة» تأتيني بشربة من ماء؟!

عائشة (تنهض إلى الباب)**:** ربما كانت تصلي!

محمد: لا أسمع لها هينمة!

عائشة (تلقي نظرة خارج المكان وتصيح)**:** يا رسول الله!

محمد: ما لك يا «عائشة»؟
عائشة: إنها قد نعسَت وهي تصلي!
محمد (يتوجه إلى مكان بريرة لينظر)**:** حقًّا!
عائشة: يا «بريرة»! ... هذا رسول الله!
محمد (لبريرة)**:** «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس، لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه!»

(يعود مع عائشة إلى مكانهما.)

عائشة (ضاحكة)**:** صدقتَ والله يا رسول الله!
محمد (لعائشة)**:** ألا ترَين أني أضاحككِ؟
عائشة (ضاحكة)**:** نعم يا رسول الله!

(أبو بكر بالباب.)

أبو بكر: أيؤذَن لي؟
محمد: ادخل يا «أبا بكر»!
أبو بكر (يدخل وينظر إليهما)**:** أتضحكان؟
محمد: نعم!
أبو بكر (باسمًا)**:** أشرِكاني في سِلمِكما، كما أشركتُماني في حربكما!

المنظر العاشر

(في مكة أمام بيت العباس بن عبد المطلب، صفوان بن أمية جالس إلى عمير، ومعهما رهط من قريش، بينهم عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل.)

صفوان (لقريش)**:** لا تصدقوا الخبر!
قريش: كيف لا نصدق، وكلما قدم أحد من بدر، أخبرَنا بمصابنا؟
عمير (همسًا لصفوان)**:** واللات، لقد أبصرتُهم يهبرون أباك وأخاك بأسيافهم هبرًا؛ كما أبصرتُ رأس «أبي الحكم» يُجتَز بسيف «معوذ»!

صفوان (في حزن)**:** واللات، ما في العيش بعدهم من خير!

عمير: صدقتَ … أما واللات، لولا دَين عليَّ ليس له عندي قضاء … وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي؛ لركبتُ إلى «محمد» حتى أقتله؛ فإن لي قبَلهم علة؛ ابني أسير في أيديهم!

صفوان: أحقًّا تقول؟

عمير: نعم!

صفوان (على عجلٍ مغتنمًا الفرصة)**:** عليَّ دَينُك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا … لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

عمير (يفكر قليلًا ثم بعزم)**:** قد قبلتُ فاكتم عني شأني وشأنك!

صفوان: أفعل!

عمير (ينهض ويأمر غلامًا له همسًا)**:** عليَّ بسيفي، وأريد أن يُشحَذ لي ويُسمَّ!

(ثم يختفي عميرٌ بين الناس.)

امرأة (تتقدم باكية)**:** يا «صفوان»! … ما أغلى ما فُدِي به قرشي؟

صفوان: أربعة آلاف درهم!

المرأة: سأبعث بها أفديه!

صفوان: من؟!

المرأة (وهي تنوح)**:** ابني «أبو عزيز»!

(يعلو نحيبها …)

قريش (يُسكتونها)**:** صه! … إن النحيب على القتلى لم يحِل بعد!

المرأة (تتجلد في الحال)**:** إلى متى؟

قريش: إن «أبا سفيان» قال: لا تفعلوا فيبلغ «محمدًا» وأصحابه، فيشمتوا بنا، ولا نبعث في أسرانا حتى نستأنس بهم، لا يأرب علينا «محمد» وأصحابه في الفداء!

المرأة (تذهب)**:** ما بقي عندي من صبر!

قريش (تنظر إلى رجلٍ قادم)**:** هذا «الحيسمان» قادمًا من «بدر»!

صفوان: عسى أن يجيء بالخبر اليقين!

قريش (للحيسمان)**:** ما وراءك؟

الحيسمان: قُتِل «عتبة بن ربيعة» و«شيبة بن ربيعة» و«الحكم بن هشام» و«أمية بن خلف»!

صفوان (همسًا لبعض قريش الدانين منه، وقد اختفى عن أنصار الحيسمان)**:** واللات أن يعقل هذا؛ فاسألوه عني!

(بعض قريش يتقدمون إلى الحيسمان.)

قريش: وما فعل «صفوان بن أمية»؟

الحيسمان (يشير إلى مكانه)**:** ها هو ذاك جالسًا في الحجر، وقد واللات رأيتُ أباه وأخاه حين قُتِلا!

أم الفضل (زوجة العباس عم النبي همسًا، وهي تنظر إلى عبدها أبي رافع)**:** لا فُض فوه القادم بهذا الخبر!

أبو رافع (همسًا في فرح لأم الفضل وهو ينحت أقداحًا)**:** لقد أيَّد الله رسوله ونصره نصرًا مبينًا!

أم الفضل (تنظر وتهمس)**:** لقد أقبل «أبو لهب» يجرُّ رجلَيه بشر!

أبو رافع (ينظر إلى وجه أبي لهب ويهمس)**:** إن الله قد كبته وأخزاه!

(أبو لهب يجلس على حجر قرب الباب صامتًا مطرقًا، وخلفه أبو رافع وأم الفضل ينظران إليه في تشفٍّ.)

أبو لهب: ما لكم لا تصدِّقون ما جاء به أولئك النفر؟!

قريش (تلتفت إلى ناحية)**:** هذا «أبو سفيان» قد جاء!

أبو لهب (ينهض ويصيح به)**:** هلمَّ إليَّ، فعندك لعَمري الخبر!

أبو سفيان (يجلس إليه، والناس قيام عليهما)**:** نعم!

أبو لهب: يا ابن أخي، أخبِرْني كيف كان أمر الناس!

أبو سفيان: واللات ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنَحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايمُ اللات مع ذلك ما لُمتُ الناس، لقِيَنا رجالٌ بِيض على خيلٍ بلْق بين السماء والأرض، واللات ما تُليق شيئًا، ولا يقوم لها شيء!

أبو رافع (لا يملك نفسه، فينهض صائحًا)**:** تلك والله الملائكة!

أبو لهب (يلتفت خلفه فيرى أبا رافع فيضربه بيده على وجهه ضربةً شديدة)**:** خسئتَ يا أسود الوجه!

أبو رافع: إني والله ما أخسأ أبدًا، إنما يخسأ المشركون!

أبو لهب (يقوم إليه فيحمله ويضرب به الأرض، ويبرك عليه يضربه)**:** تبًّا لك من عبدٍ خسيس، واللات لأضربن بك الأرض!

أم الفضل (تأتي بعمود من عمَد البيت فتضرب به أبا لهب ضربةً تشج رأسه)**:** استضعفتَه أن غاب عنه سيِّدُه!

أبو لهب (يضع يده على رأسه)**:** حسبكِ! ... حسبكِ!

(ويقوم هاربًا.)

أم الفضل: قم! ... اذهب عنا، موليًا ذليلًا!

قريش (تجتمع حول أبي سفيان)**:** يا «أبا سفيان»! ... ألا تفتدي «عَمرًا» ابنك؟

أبو سفيان: أيجتمع عليَّ دمي ومالي؟! ... قتلوا ابني «حنظلة» وأفدي ابني «عمرًا»؟ ... دعوه في أيديهم، يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم!

صفوان (يتقدم صائحًا في الناس)**:** أبشروا بوقعةٍ تأتيكم في أيام، تُنسيكم وقعة «بدر»!

قريش: ماذا؟

صفوان: لا أقول لكم الآن!

عكرمة: يا معشر قريش! ... عندي لكم رأي!

قريش: قل يا «عكرمة»!

عكرمة: لقد ربحَت تجارتنا وجاء بها «أبو سفيان» ... وإن «محمدًا» قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا!

أبو سفيان: نعم الرأي!

قريش: نعم فلنخرج لحرب «محمد» بأموالنا!

جبير (ينادي عبدًا له)**:** يا وحشي!

وحشي: لبيك مولاي!

جبير: إنك تقذف برمحك، قذف الحبشة قلما تخطئ به، فاخرج مع الناس، فإن أنت قتلتَ «حمزة» عم «محمد» بعمِّي «طعيمة» فأنتَ عتيق!

وحشي (فرحًا)**:** أفعل!

أبو سفيان: فلتخرج قريش بحدها وجدها وأحابيشها!

قريش (تصيح)**:** الثأر! ... الثأر!

(يتفرقون.)

أبو رافع (لأم الفضل)**:** ويحهم! ... سيخرجون لحرب رسول الله!
أم الفضل: إذا جاء «العباس» فلنخبره، علَّه ينبئ رسول الله بخبرهم!
أبو رافع: نعم!
أم الفضل (تنظر)**:** من هذا القادم؟
أبو رافع: هذا «الأسوَد بن المطلب»!
أم الفضل: لقد أُصِيب له ثلاثة من ولده!

(تدخل دارها، ويدخل خلفها أبو رافع.)

الأسود (وقد ذهب بصره يقوده غلامٌ له)**:** اسمع ... أليست هذه نائحة؟

(يصغي إلى صوت امرأة قد ارتفع في الفضاء ...)

الغلام (يصغي)**:** نعم!
الأسود: اذهب وانظر هل أُحِل النحيب! ... هل بكَت قريش على قتلاها، لعلِّي أبكي على «أبي حكيمة» فإن جوفي قد احترق!

(الغلام يذهب سريعًا.)

هند بنت عتبة بن ربيعة (تقبِل)**:** ماذا تصنع هنا يا «ابن المطلب»؟
الأسود: من أنتِ؟
هند: أنا «هند بنت عتبة»!
الأسود: أما بكيتِ على أبيك؟
هند: لم يحِن الحين.
الغلام (يعود صائحًا)**:** كلا، لم يحِل النحيب!
الأسود: وما تلك النائحة؟
الغلام: إنما هي امرأة تبكي على بعيرٍ لها أضلَّته!

(الأسود يستند إلى ذراع غلامه ويمضيان في إطراق.)

الأسود:

أتبكي أن يضل لها بعيرٌ ويمنعها من النوم السهودُ
ولا تبكي على «بدر» ولكن على «بدر» تقاصرَت الجدودُ

(يذهب.)

(هند تسير في طريقها، فتقابل العبد وحشيًّا يحمل رمحه.)

وحشي (وهو يهز الرمح)**:** أيها الرمح! ... رقبتي معلقة بسنك!
هند (لوحشي)**:** ويهًا «أبا دسمة» ... اشْفِ واشتَفِ!

المنظر الحادي عشر

(في المسجد بالمدينة ... «كعب بن الأشرف» اليهودي في نفر من القوم.)

كعب بن الأشرف: أحقًّا تقولون؟ ... أترَون «محمدًا» قتل هؤلاء؟
الناس: نعم!
كعب: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان «محمد» أصاب هؤلاء القوم، لَبطن الأرض خير من ظهرها!
عمر بن الخطاب (يدخل)**:** ماذا يقول هذا اليهودي؟
كعب: أقُتِل حقًّا أشراف «قريش» في «بدر»؟
عمر: اذهب إلى «القليب» تجدْ جيَفهم!
الناس (ينهضون في إجلال)**:** رسول الله!

(محمد يدخل من باب مسكنه اللافظ في المسجد، وقد رأى اليهوديَّ كعب بن الأشرف.)

محمد: يا معشر «يهود»! ... احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسَل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.
كعب: يا «محمد»! ... إنك ترى أنَّا قومك؟ ... لا يغرنك أنك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة، إنا والله لئن حاربْناك لتعلمَن أنَّا نحن الناس!

عمر (يدفعه ويخرجه من المسجد)**:** اخسأ واغرب يا عدو الله!

(صمت.)

ابن إسحاق (من بين الناس المحيطين بمحمد)**:** يا رسول الله! ... أَمَن استُشهِد يوم «بدر» يدخل الجنة؟

محمد: نعم!

ضرار: مَن يدخلها من أمتك يا رسول الله؟

محمد: يدخل الجنة سبعون ألفًا من أمتي على صورة القمر ليلة البدر!

عكاشة: يا رسول الله! ... ادعُ الله أن يجعلني منهم!

محمد (يرفع عينيه إلى السماء)**:** اللهم اجعله منهم!

(يقوم رجل من الأنصار مسرعًا إلى محمد.)

الأنصاري: يا رسول الله! ... ادعُ الله أن يجعلني منهم!

محمد: سبقك بها عكاشة، وبردَت الدعوة!

عمر (يلتفت إلى باب المسجد)**:** من الذي أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف؟

(ابن إسحاق يتجه إلى الباب ثم يعود إلى عمر مسرعًا هامسًا ...)

ابن إسحاق: هو عمير بن وهب!

عمر: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر!

ابن إسحاق: نعم وهو الذي حرَّش بيننا وحزرنا للقوم «يوم بدر»!

عمر (يدنو من محمد الجالس في وسط المسجد)**:** يا نبي الله هذا عدو الله «عمير بن وهب» قد جاء متوشحًا سيفه!

محمد: أدخلْه عليَّ!

عمر (وهو ذاهب إلى الباب، يلتفت إلى نفر من الأنصار)**:** اجلسوا عند رسول الله واحذروا عليه من هذا الخبيث؛ فإنه غير مأمون!

(يخرج ويعود في الحال مع عمير وقد أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها.)

محمد: أرسلْه يا «عمر»!

(عمر يترك عميرًا.)

محمد: ادنُ يا «عمير»!

عمير (يدنو)**:** أنعِمُوا صباحًا!

عمر (همسًا له)**:** تلك تحية أهل الجاهلية يا عدو الله!

محمد (لعمير)**:** قد أكرمَنا الله بتحيةٍ خير من تحيتك يا «عمير»؛ بالسلام تحية أهل الجنة!

عمير: أما والله يا «محمد» إن كنتَ بها لحديث عهد!

محمد: ما جاء بك يا «عمير»؟

عمير: جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسِنوا فيه!

محمد: وما بال السيف في عنقك؟

عمير: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنَت عنا شيئًا؟!

محمد: اصدُقْني ... ما الذي جئتَ له؟

عمير: ما جئتُ إلا لذلك!

محمد (ينظر إليه مليًّا)**:** بلى، قعدتَ أنت و«صفوان بن أمية» في «الحِجر» فذكرتُما أصحاب «القليب» من قريش، ثم قلتَ: «لولا دَينٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل «محمدًا».» فتحمَّل لك «صفوان» بدَينك وعيالك في أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك!

عمير (في عجب ودهش)**:** هذا والله أمر لم يحضره إلا أنا و«صفوان»، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله!

محمد: نعم!

عمير: أشهد أنك رسول الله!

محمد: الله أكبر!

عمير: قد كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي!

محمد: الله أكبر!

عمير: الحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق! ... أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله!

محمد (لأصحابه)**:** فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره.

(يذهب بعمير أحد الأنصار.)

عمير (قبل أن يذهب): يا رسول الله! ... إني كنتُ جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي؛ فأقدم «مكة» فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتُهم في دينهم كما كنتُ أوذي أصحابك في دينهم!

محمد: افعل!

أبو بكر (يدخل ومعه كتاب): يا رسول الله ... هذا كتاب من «العباس بن عبد المطلب»!

محمد: اقرأ!

أبو بكر (يقرأ الكتاب): لقد خرجَت «قريش» لحربكم، تطلب بثأر «بدر»، وجهَّزوا بربح تجارتهم جيشًا إليكم!

عمر: أين الرسول الذي جاء بهذا الكتاب؟

أبو بكر (يشير إلى رجل بالباب): ها هو ذاك!

عمر (للرجل): أخرجَت «قريش»؟

الرجل: نعم، وإنهم قد خلوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بـ «العريض» حتى تركوه ليس به خضراء!

محمد (يرفع رأسه): قد رأيتُ والله تلك الليلة كأن بقرًا لي تُذبَح، ورأيتُ في ذباب سيفي ثَلَمًا، ورأيتُ أني أُدخِلَت يدي في دِرعٍ حصينة!

أبو بكر: خير إن شاء الله!

عبد الله بن أُبي: وما تأويل ذلك يا رسول الله؟!

محمد: أما البقر فهي ناس من أصحابي يُقتَلون، وأما الثَّلم الذي رأيتُ في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتَل، وأما الدرع الحصينة فأوَّلتُها «المدينة»؛ فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا، أقاموا بشرٍّ مُقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلْناهم فيها.

عبد الله بن أُبي: هذا والله هو الرأي!

(يقوم بعض فتيان من الأنصار.)

الشباب: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرَون أنَّا جبُنَّا عنهم وضعُفْنا!

ابن أُبي: يا رسول الله، أَقِم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجْنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبْنا منه، فدعْهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مَحبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين؛ كما جاءوا.

محمد (للناس)**:** امكثوا في «المدينة»، واجعلوا النساء والذراري في الآطام!

الشباب: اخرج بنا يا رسول الله! ... لقد كنا والله نخرج إلى عدونا ... أما وقد أعزنا الله بالإسلام، وفينا نبي مرسل؛ أيدخل الوهن قلوبنا والخوف نفوسنا؟

ابن أُبي: هؤلاء والله فتْيان أحداث ممن لم يشهدوا «بدرًا» لا يرَون إلا أن يصنعوا ما صنع الآخرون!

الشباب: نعم ... إن الله الذي نصر رسوله يوم «بدر» لقادر على نصره اليوم ... اخرج بنا يا رسول الله؛ كما خرجتَ بأصحاب «بدر»! ... اخرج بنا إلى عدونا!

محمد (ينهض)**:** تهيَّئوا للخروج إلى عدوكم!

(ثم يدخل بيته من أحد أبواب المسجد ويشير إلى أبي بكر وعمر فيتبعانه.)

الشباب (في فرح)**:** الله أكبر! ... الله أكبر!

ابن أُبي: عصاني وأطاع الولْدان!

(ينصرف مغضَبًا.)

سعد بن معاذ (للشباب)**:** استكرهتم رسول الله على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء!

أسيد بن خضير (للشباب)**:** ردوا الأمر إليه!

الشباب (في تفكير وندم)**:** أجل ... والله لقد استكرهْنا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك!

سعد (ينظر حوله)**:** أين «أبو بكر» و«عمر»؟

أسيد (يدنو من باب النبي وينظر)**:** إنهما مع رسول الله، وقد عمَّماه وألبَساه!

سعد: يا «أسيد» ... صُف الناس له ينتظرون خروجه!

أسيد (يصيح)**:** أيها الناس ... اصطفوا!

(يخرج محمد وقد لبس لَأْمته، وأظهر الدرع، واعتمَّ، وتقلَّد السيف، وألقى الترس في ظهره، وخلفه أبو بكر وعمر.)

سعد (للنبي)**:** يا رسول الله! ... ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك!
الشباب: استكرهْناك يا نبي الله، ولم يكن ذلك لنا؛ فإن شئتَ فاقعد!
محمد (يفكر قليلًا ثم يعزم)**:** ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ... فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه، وامضوا على اسم الله؛ فلكم النصر ما صبرتم!

المنظر الثاني عشر

(محمد في جيشه، أمام حائط لـ «مربع بن قيظي».)

محمد: مَن رجل يخرج بنا على القوم من كثب، من طريق لا يمر بنا عليهم؟
أبو حثمة (يتقدم)**:** أنا يا رسول الله!
عمر: كيف؟
أبو حثمة: ننفذ من أرض «مربع بن قيظي» هذه!
مربع (يسمع حسهم، وهو رجلٌ ضرير، فيخرج ويصيح بهم)**:** ممن القوم؟
أبو حثمة: صه! ... هذا رسول الله وصحبه، يريدون أن ينفذوا!
مربع (صائحًا)**:** إن كنتَ رسول الله، فإنني لا أحل لك أن تدخل حائطي!
محمد: من هذا الرجل؟
أبو حثمة: هو يا رسول الله رجلٌ منافق ضرير البصر!

(مربع يأخذ حفنة من تراب في يده.)

عمر: ما تصنع أيها الرجل بهذه الحفنة من التراب في يدك؟
مربع: والله لو أني أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا «محمد» لضربتُ بها وجهك!

(يبتدره القوم ليقتلوه.)

أبو حثمة: قُبِّحتَ يا عدو الله!

(يرفع سيفه عليه.)

محمد: لا تقتلوه!... فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصر!

(يسير محمد، ويتبعه الناس.)

ابن أُبي (في صخب له يهمس)**:** ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؛ فلنرجع!

(ينصرف ويتبعه قومه.)

أحد الأنصار: يا قوم أذكركم الله، ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عند ما حضر من عدوهم!

ابن أُبي: لقد أطاع مَن لا رأي له وعصاني، فلنرجع!

(ينصرفون.)

الأنصاري: أبعدكم الله — أعداء الله — فسيُغني الله عنكم نبيه!

أسيد (يلتفت ويصيح)**:** عجبًا! ... ما بال بعض القوم ينصرفون؟

الأنصاري: هذا ابن أُبي وقومه، قد انخذلوا عنا!

أسيد: إنهم ثلث الناس! ... لقد انخذل عنا اللعين بثلث الناس!

الأنصاري: نعم ... وما بقينا إلا في سبعمائة رجل وفرسَين!

المنظر الثالث عشر

(عند جبل «أحد»، «محمد» وجيشه يتهيئون للقتال، وقد جعلوا «أحُدًا» خلف ظهورهم.)

محمد (يمر في صفوف الرماة، وهم خمسون رجلًا)**:** قوموا على مصافِّكم هذه، انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا تخطَّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا قد هزمْنا القوم، وظهرْنا عليهم، وأوطأناهم؛ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم!

أبو حثمة (يقدم): لقد رأيتُ المشركين يا «رسول الله»، وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فَرس، وقد جعلوا على الميمنة «خالد بن الوليد»، وعلى الميسرة «عكرمة بن أبي جهل»، وعلى الرماة «عبد الله بن أبي ربيعة»، وهم مائة رامٍ!

محمد: ومن يحمل لواءهم؟

أبو حثمة: «طلحة بن عبد الدار»!
محمد: أين «مصعب بن عمير»؟
مصعب (يتقدم)**:** ها أنا ذا!
محمد (يدفع إليه اللواء)**:** خذ اللواء!
مصعب: وما شعارنا يا رسول الله؟
محمد: يا منصور ... أَمِتْ! ... أَمِتْ!
مصعب: اللهم يا منصور، انصر رسولك وأمت أعداءه وأعداءك!
محمد (يلتفت إلى كتيبة خشناء)**:** مَن هؤلاء؟
عمر: هم حلفاء «ابن أُبي» من «يهود»، وعددهم ستمائة رجل.
محمد: أوَقد أسلموا؟
عمر: لا يا رسول الله!
محمد: قولوا لهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين!
عمر (يأمر الكتيبة)**:** اذهبوا ... لا حاجة لنا بكم!

(تنصرف.)

محمد (يرفع سيفه)**:** مَن يأخذ هذا السيف بحقه؟
المسلمون: سيف رسول الله؟!
محمد: نعم!
أحد الأنصار (يقوم إليه)**:** أنا يا رسول الله!
محمد (يمسكه عنه)**:** كلا!
أحد المهاجرين (يقوم إليه)**:** أنا!
محمد (يمسكه عنه)**:** كلا!
عمر (لأبي بكر همسًا)**:** هذا «أبو دجانة» الشجاع يقوم إليه!
أبو دجانة (صائحًا)**:** نعم ... أنا أقوم إليه ... ما حقه يا رسول الله؟
محمد: أن تضرب به في العدو حتى ينحني!
أبو دجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه!
محمد (يعطيه إياه)**:** خذ!

أبو دجانة (يأخذ السيف من النبي، ويهزه في حماسة، ويتمثَّل):

أنا الذي عاهدَني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيلِ
ألَّا أقوم الدهر في الكُبولِ اضربْ بسيف الله والرسولِ

(ثم يُخرج عصابةً حمراء، يعصب بها رأسه ويتبختر بين الصفوف.)

الأنصار: لقد أخرج «أبو دجانة» عصابة الموت!

عمر (لأبي بكر): أرأيت؟ … إنه إذا عصب رأسه بهذه العصابة الحمراء علم الناس أنه سيقاتل!

أبو بكر (في إعجاب): انظر يا رسول الله كيف يختال «أبو دجانة» ويتبختر!

محمد: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن!

أبو حثمة (يصيح): لقد دنا العدو!

عمر (ينظر): نعم، وإني لأرى صنمهم «هبل» على جمل بين صفوفهم، جاءوا به ولا ريب يتيامنون به! … قاتلهم الله أجمعين!

(يدنو جيش قريش، ويصيح أبو سفيان بأصحاب اللواء في جيشه.)

أبو سفيان: يا «عبد الدار» إنكم قد وُلِّيتم لواءنا يوم «بدر» فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتَى الناس من قِبَل راياتهم، إذا زالت زالوا؛ فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تُخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه!

طلحة: نحن نسلم إليك لواءنا؟! … ستعلم إذا التقَينا كيف نصنع!

أبو عامر: ألكم في رجل يشطر جيش «محمد» شطرَين؟ … أنا؛ فإن أهلي من «الأوس» في صف «محمد» ما إن يسمعوا ندائي حتى يستجيبوا لي … وينحازوا معنا عليه!

أبو سفيان: هلمَّ فاصنع!

أبو عامر (يصيح في جيش محمد): يا معشر «الأوس» أنا «أبو عامر»!

المسلمون (من أهله وقومه): لا مرحبًا بك ولا أهلًا يا فاسق!

أبو سفيان (ساخرًا): أسمعتَ؟

أبو عامر: لقد أصاب قومي بعدي شر!

(ثم يقاتل المسلمين ... ويبدأ الحرب بين الطرفين، أبو سعد ابن أبي طلحة يتقدم صف المشركين.)

أبو سعد (صائحًا)**:** من يبارز؟
علي (يبرز إليه)**:** أنا!

(يختلفان ضربتَين؛ ويقتله علي.)

حمزة (يصيح)**:** يا منصور ... أَمِتْ! ... أَمِتْ!

(ثم يهجم على طلحة حامل لواء قريش، فيضربه على يده اليمنى، فيتناول طلحة اللواء باليسرى، فيقطعها حمزة بسيفه، فيضم طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره فيعاجله حمزة بضربة تقتله.)

محمد (يصيح)**:** الله أكبر ... الله أكبر!

(أم عامر ومعها سقاء فيه ماء، تمشي بين صفوف المسلمين.)

أم عامر: أبشروا معشر الأنصار والمهاجرين، نصركم الله النصر المبين!
أبو سفيان (يصيح)**:** يا لـ «العزى»! ... يا لـ «هبل»!
هند (في نسوة بين صفوف قريش)**:**

ويـهًـا «بـنـي عـبـد الـدار»
ويهًا «حماة الأدبار بكل بتار»!

محمد (يصيح في المسلمين)**:** شدُّوا! ... شدُّوا!
أبو دجانة (صائحًا)**:**

أنـا الـذي عاهـدَني خـلـيـلـي اضربْ بسيف الله والرسولِ

عمر: مرحى! ... مرحى! ... إن المشركين قد انكشفوا منهزمين!

هند (مع النسوة يصحْن في صفوف العدو):

نحن بنات طارِق　　نمشي على النمارِق
إن تُقبلوا نعانِق　　أو تدبروا نفارِق
فراق غيرِ وامِق

المسلمون (صائحين)**:** يا منصور! ... أمِتْ! ... أمِتْ!
أبو دجانة (يصيح): أنا الذي عاهدَني خليلي ...

(يرفع سيفه على هند.)

هند (تولول): ويلاه!
أبو دجانة (يتركها)**:** أهي امرأة؟ ... اذهبي قبَّحكِ الله!
الزبير (خلفه): اقتلها!
أبو دجانة: إني أُكرم سيف رسول الله أن أضرب به امرأة!
عمر (يصيح للرماة)**:** أجلوهم بالنبل أيها الرماة!

(عاصم بن أبي الأقلح من جيش المسلمين يرمي بسهمه مشركًا هو «مسافع بن طلحة».)

عاصم: خذها وأنا «ابن أبي الأقلح»!

(يقع مسافع.)

المسلمون: يا منصور! ... أمِتْ! ... أمِتْ!
أبو بكر (صائحًا)**:** اتبعوهم!
أم مسافع (تحمل ابنها في حجرها، والمسلمون يطاردون عدوهم)**:** يا بنَي من أصابك؟
مسافع (وهو يموت)**:** سمعتُ رجلًا حين رماني وهو يقول: خذها وأنا «ابن أبي الأقلح»!

(يموت.)

أم مسافع: واللات إن تمكنتُ من رأسه لأشربن فيه الخمر!

(تترك جثة ابنها وتجري وقد طاردها المسلمون فيمن طاردوا.)

الزبير (لأحد الأنصار)**:** انظر! … والله إني لأرى «هندًا» وصواحبها مشمراتٍ هوارب، وما دون أخذِهن قليل ولا كثير!

الأنصاري: هلمَّ نسلب العدو، فهزيمته لا شك فيها!

(يعكف المسلمون على السلب ويشغلون به.)

الرماة: انظروا! … النساء يشتددن على الجبل، قد بدَت أسوُقهن وخلاخلهن، رافعات ثيابهن!

(يلحظ أميرهم عبد الله بن جبير تهامُس الرماة.)

عبد الله (صائحًا بهم)**:** لا تبرحوا!

الرماة (صائحين)**:** الغنيمة!

أحد الرماة (يترك مكانه في حماسة)**:** نعم … الغنيمة! … أيْ أقدموا … الغنيمة! … قد ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟

عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟

الرماة: لم يُرِد رسول الله هذا … قد انهزم المشركون، فما مقامنا ها هنا؟

عبد الله: لا أُجاوز أمر رسول الله!

أحد الرماة: انطلقوا! … نتبع العسكر وننتهب معهم!

(ينطلق الرماة خلف العسكر يسلبون، ويثبت ابن جبير في نفرٍ يسير.)

هند (تقابل العبد وحشيًّا في طريقها)**:** ويهًا «أبا دسمة»! … اشفِ واشتفِ!

وحشي: أين «حمزة»؟

هند: تراه في عرض الناس؛ مثل الجمل الأورق يهذ الناس بسيفه هذًّا، ما يقوم له شيء!

(يتركها ويذهب وهو يهز حربته في يده.)

عمر (في دهش وخوف)**:** الجبل خالٍ! ... أين ذهب الرماة؟!

خالد بن الوليد (يصيح)**:** لقد خلوا الجبل! ... فلنكرَّ بالخيل على مَن بقي من رُماتهم!

(يحمل على ابن جبير ورجاله من المسلمين فيقتلونهم، وتجتمع قريش في أمل.)

أبو سفيان (صائحًا)**:** يا معشر قريش! ... احملوا! ... احملوا!

قريش (متصايحة)**:** يا لـ «العزى»! ... يا لـ «هبل»!

(يُنزلون بالمسلمين قتلًا ذريعًا، وقد تفككَت صفوف المسلمين.)

محمد (في نفرٍ قليل من أصحابه)**:** اثبتوا! ... اثبتوا!

(يرمي عن قوسه حتى تصير شظايا ثم يرمي بالحجر.)

مصعب (يصيح للفارين أمام العدو)**:** يا أصحاب النبي! ... ارجعوا واثبتوا!

محمد (يصيح)**:** لكم النصر ما صبرتم!

مصعب (في حزن، وهو يقاتل دون النبي)**:** تفرَّق شملنا، وانتقضَت صفوفنا، واستدارت الرحى!

سعد بن أبي وقاص (وهو يرمي بالنبل دون النبي)**:** لقد اقترب منا العدو يا رسول الله، وما بقينا حولك سوى عشرة وقد نفدت السهام، وأخشى عليك!

محمد (يناوله سهمًا وجده بقربه)**:** ارمِ فداك أبي وأمي!

سعد: إنك يا رسول الله تناولني سهمًا ما له نصل!

محمد: ارمِ به!

أم عمارة (تقبِل بسقاتها)**:** رسول الله وحده مع نفرٍ قليل، والعدو دانٍ! ... أعطوني سيفًا أذبُّ عن رسول الله!

(تلقي بسقائها، وتتناول سيف أحد القتلى وتقاتل به دون النبي.)

أبو دجانة (يقبِل وسيفه في يده يقطر دمًا والجراح في جسمه)**:** لقد ولَّى الناس عنك يا رسول الله، وأخشى أن يخلُص إليك العدو! ... هذا نَبلُه يصل إليك! ... دعْني أترِّس دونك بنفسي؟

(ينحني على النبي فيقع في ظهره النبل.)

محمد: إن النبل يقع في ظهرك!
أبو دجانة: لا بأس!

(يكثر النبل في ظهر أبي دجانة حتى يموت، ويقبل من صفوف قريش رجل هو ابن قميئة ويهجم رافعًا سيفه.)

ابن قميئة: دلُّوني على «محمد» فلا نجوتُ إن نجا!
أم عمارة (تعترضه)**:** مكانك يا عدو الله!
ابن قميئة (يضربها بسيفه على عاتقها فتقع)**:** عنِّي أيتها الخاسرة!
مصعب (يعترضه)**:** دونك!
ابن قميئة (يضرب مصعبًا بسيفه فيرديه)**:** خذ!

(ثم يذهب إلى جهة النبي.)

حمزة (يقبِل ويمر بأم عمارة، وهي طريحة تعاني من جرحها)**:** مَن أصابك بهذا؟
أم عمارة: «ابن قميئة»، أقمأه الله!
حمزة: أين هو؟
أم عمارة (تلمح الغلام وحشيًّا خلف حمزة رافعًا الرمح، فتصرخ)**:** انتبه إلى من خلفك!

(يستتر وحشي منه بحجر.)

حمزة (يلتفت)**:** من؟

(يتقدم إليه أحد المشركين وهو سباع بن عبد العزى.)

أم عمارة (تصيح)**:** حذار! ذاك «سباع»، ابن ختَّانة مكة!
حمزة (يستقبله بالسيف)**:** هلمَّ إليَّ يا ابن مُقطِّعة البظور!

(يضربه ضربة تصيب رأسه.)

وحشي (يخرج من مخبئه، ويهز رمحه، ثم يدفعه على حمزة)**: خذها وأنا «أبو دسمة»!**

(يقع الرمح في لبب حمزة ويخرج من بين رجليه.)

حمزة (في صيحة ألم)**: أصبتَني يا أسود الوجه!**

(يذهب وهو ينوء نحو وحشي فيُغلَب ويقع.)

أم عمارة (صارخة)**:** ويلاه! ... وقع أسد الله! ... وقع أسد الله!
وحشي (يترك رمحه في حمزة حتى يموت، فيأتيه وينزعه منه)**: الآن قد أعتقتُ!**

(يذهب لا يلوي على شيء.)

ابن قميئة (يجري نحو قريش يصيح)**:** يا معشر قريش! ... يا معشر قريش!
صوت (يعلو من الناس)**:** أيها الناس! ... إن محمدًا قد قُتِل!
المسلمون (في دهش وذهول)**:** قُتِل رسول الله!
أبو بكر (في ذهول بين بعض المهاجرين والأنصار)**:** قُتِل!
عمر بن الخطاب (في دهش وذهول)**:** قُتِل!

(يُلقون ما بأيديهم يأسًا ... يمر بهم أنس بن مالك وفي يده السيف والدماء تتساقط منه، والعرق يتصبب من وجهه.)

أنس: ما يجلسكم؟
المسلمون: النبي قد مات!

(يتركهم ويستقبل العدو، ويقاتل حتى يسقط، ويمر كعب بن مالك فيعثر على محمد واقعًا في حفرة ووجهه مخضَّب بالدماء.)

كعب (يصيح فرحًا)**:** رسول الله! ... عرفتُ عينَيك الشريفتَين تُزهران من تحت المِغْفَر!
محمد (في همس)**:** اسكت!
كعب (ينتصب واقفًا في فرح! ولا يملك نفسه أن يصيح)**:** يا معشر المسلمين أبشروا! ... هذا رسول الله!

محمد (يشير إليه)**:** اسكت!

المسلمون (ينهضون)**:** أين؟ ... أين؟

(ثم يجرون نحو الحفرة التي وقع فيها النبي.)

أبو بكر (يثب فرحًا)**:** رسول الله بخير؟!

عمر (يجري نحو النبي)**:** حمدًا لك اللهم!

علي (يُنهض محمدًا من الحفرة)**:** هو اللعين «ابن قميئة» الذي فعل هذا؟

كعب: نعم ... وقد قَتل «مصعب بن عمير»!

محمد (وهو يمسح الدم الذي يسيل على وجهه)**:** كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم!

أبو سفيان (يصيح من صفوف قريش)**:** أيها الناس! ... أفي القتلى «محمد»؟ ... أفي القتلى «محمد»؟ ... أفي القتلى «محمد»؟

محمد (لصحبه)**:** لا تجيبوه!

أبو سفيان (صائحًا)**:** أفي القتلى «ابن أبي قحافة»؟

محمد: لا تجيبوه!

أبو سفيان (يمضي في الصياح)**:** أفي القتلى «ابن الخطاب»؟

محمد: لا تجيبوه!

أبو سفيان (لقومه صائحًا)**:** هؤلاء قد قُتِلوا وقد كُفِيتموهم!

عمر (لا يملك نفسه أن يصيح)**:** كذبتَ والله يا عدو الله! ... إن الذين عددتَ لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك!

(أُبي بن خلف يسمع قول عمر فيأتي مسرعًا رافعًا سيفه.)

ابن خلف: أي محمد! ... لا نجوتُ إن نجوتَ!

علي (للنبي)**:** أيعطف عليه رجل منا؟

محمد: دعوه!

ابن خلف (يدنو صائحًا)**:** أين «محمد»؟

محمد (يتناول رمحًا من أحد أصحابه، وينتفض به انتفاضة شديدة، ويستقبل ابن خلف فيطعنه به)**:** خذ!

ابن خلف (في ألم وروع)**:** آه!... قتلني «محمد»!

(يرجع إلى قومه؛ ويسقط بينهم.)

عمر: فلنعلُ الجبل يا رسول الله! ... لا يلحقوا بنا!

(يصعدون بمحمد الجبل.)

علي (ينظر أسفل الجبل)**:** هذا «خالد بن الوليد» في رجال يعلون خلفنا الجبل!
محمد: اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا!
عمر: فلنقاتلهم حتى نُهبطهم!
أبو بكر: ارموهم بالنبل والحجارة!

(يرمونهم حتى يهبطوا الجبل.)

خالد بن الوليد (في أسفل الجبل ينظر إليهم، وهم يصعدون)**:** لقد فروا! ... فما هم إلا بضعة رجال لا غناء فيهم بعد أن ذهب جيشهم!

أبو سفيان (يصيح)**:** أنعمتِ فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم «بدر»! ... اعلُ هبل! ... اعلُ هبل!

محمد (لأصحابه)**:** ألا تجيبونه؟
عمر: بماذا نجيبه يا رسول الله؟
محمد: قولوا: «الله أعلى وأجل! ... لا سواء ... قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار!»

(عمر والمسلمون يصيحون بما أمرهم به النبي.)

أبو سفيان (يصيح)**:** يا أصحاب «محمد»! ... لنا العزى، ولا «عزى» لكم!
محمد: قولوا له: «الله مولانا، ولا مولى لكم!»

(المسلمون يصيحون بما أُمِروا به ...)

علي (ينظر)**:** لقد ذهبوا!

محمد (لعلي)**:** اخرج في آثارهم فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون «مكة»، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم!

(علي يذهب لما أُمِر به.)

كعب (يقبِل محزونًا)**:** يا رسول الله! ... إن «حمزة» في القتلى!

محمد (في دهش)**:** حمزة؟!

كعب (مرتجف الصوت)**:** نعم! ... وقد وقفَت «هند» ونسوة معها من قريش، يمثّلْن بالقتلى من أصحابنا، يجدعنَ الآذان والآنفَ، وقد اتخذَت «هند» من آذان الرجال وآنفهم قلائد، وقد بقرَت بطن «حمزة» عن كبده، فأخرجَتها فلاكَتها بأسنانها، فلم تستطع أن تُسيغها فلفظَتها!

محمد (في دهش)**:** مَن قتله؟

كعب: «وحشي» غلام «جبير بن مطعم»!

هند (تعلو صخرةً مشرفة وتصيح)**:** يا أصحاب «محمد»!

كعب (يلتفت)**:** تلك هي!

(هند تصيح):

نحن جزَيناكم بيوم «بدرِ»
والحرب بعد الحرب ذات سعرِ
ما كان عن «عتبة» لي من صبرِ
ولا أخي وعمه وبِكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري
شفيتَ «وحشي» غليلَ صدري!
فشكر «وحشي» عليَّ عُمري
حتى ترِمَّ أعظُمي في قبري!

(تهبط وتتبع قومها.)

أبو سفيان (يمر بجثة حمزة فيضرب في شدقه بزج الرمح)**:** ذق عُقَق؟

الحليس (خلفه وقد رآه يفعل ذلك)**:** هذا سيد قريش، يصنع بابن عمه هذا؟!

أبو سفيان (يلتفت خلفه فيرى الحليس)**:** ويحك! ... اكتمها عني! ... فإنها كانت زلة!

الحليس (كالمخاطب لنفسه ساخطًا وقد رأى الجثث المبقورة)**:** ما هذا المَثْل بالرجال؟!

أبو سفيان (يلتفت ناحية المسلمين، ويصيح)**:** يا أصحاب «محمد»! ... إنه كان في قتلاكم مَثْل، والله ما رضيتُ وما سخطتُ، وما نهَيتُ وما أمرتُ! ... إن موعدكم «بدر» للعام القابل!

(يذهب مع القوم.)

محمد (لعمر)**:** قل نعم ... بيننا وبينك موعد!

عمر (يصيح)**:** يا «أبا سفيان»! ... هو بيننا وبينك موعد!

أبو بكر: أين ذهب الناس؟

كعب: قومنا؟ ... في كل وادٍ! ... لقد ولَّى الناس عن رسول الله؛ إذ سمعوا من صاح فيهم: «محمد قد قُتِل»!

عمر: نعم ... والله لقد سمعْنا هذا فلم ندرِ ما نصنع من الرَّوع!

أبو بكر: لقد فت في أعضاد المسلمين!

محمد (يتلو)**:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

علي: يا رسول الله! ... إن قريشًا قد جنبَت الخيل وامتطَت الإبل، ووجِّهَت إلى «مكة»!

محمد (محزونًا)**:** فلنرَ قتلانا! ... هلمُّوا بنا إلى بطن الوادي، نرى قتلانا!

(يهبطان إلى بطن الوادي.)

علي: رسول الله يلتمس حمزة! ... (يصيح فجأةً أمام جثةٍ مبقورة) ها هو ذا ... اللهم غَفرًا ... بئس ما صنعوا به! ... بئس ما صنعوا به!

محمد (أمام الجثة دهشًا متأثرًا حزينًا)**:** عماه!

(صمتٌ عميق وحزنٌ شامل يخيِّمان على الجميع.)

كعب (يدنو من النبي)**:** يا رسول الله! ... إن «صفية أخت حمزة» قد أقبلَت لتنظر إليه!

محمد: الْقَها فأرجِعها لا ترى ما بأخيها!

كعب (لصفية خلف الناس)**:** إن رسول الله يأمركِ أن ترجعي!

صفية: ولمَ؟ ... وقد بلغَني أن قد مُثِّل بأخي وذلك في الله؛ فما أرضانا بما كان من ذلك! ... لأحتسبَن ولأصبرَن إن شاء الله!

كعب (يتركها، ويذهب للنبي)**:** يا رسول الله! ... لقد بلغها أن قد مُثِّل بـ «حمزة» وتقول: «إن ذلك في الله»! ... وهي راضية صابرة!

محمد: خلِّ سبيلها!

(كعب يذهب إليها ويأتي بها.)

صفية (تأتي، وتنظر إلى جثة حمزة المبقورة)**:** إنا لله وإنا إليه راجعون! ... اللهم اغفر له!

(ثم تدير وجهها، وتذهب لسبيلها.)

محمد (ناظرًا إلى جثة حمزة المبقورة)**:** والله لولا أن تحزن «صفية»، وتكون سنة من بعدي؛ لتركتُه حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرَني الله على قريش في موطنٍ من المواطن؛ لأمثِّلن بثلاثين رجلًا منهم!

المسلمون (في حزن وغيظ)**:** والله لئن أظفرَنا الله بهم يومًا من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يُمثِّلها أحد من العرب!

محمد (مخاطبًا جثة حمزة)**:** لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفتُ موقفًا قط أغيظ إليَّ من هذا!

جبريل (يهبط على محمد)**:** ... ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

محمد (لأصحابه)**:** الصبر خير لنا! ... اصبروا، ولا تمثلوا بأحد!

المنظر الرابع عشر

(في المدينة ... أمام مسجد ومساكن النبي ... المدينة تبكي.)

عمر (يصغي إلى البكاء والنوائح في المنازل)**:** الناس تبكي على قتلاها!

محمد (يذرف دمعة)**:** لكن «حمزة» لا بواكي له!

(سعد بن معاذ ينهض ويهمس إلى أسيد بن النضر.)

سعد: اذهبْ يا «أسيد» وأمر نساءنا أن يتحزَّمن، ثم يأتِين فيبكينَ على عم رسول الله!

(أسيد يذهب.)

عمر (يرى امرأة تسأل الناس)**:** من هذه المرأة؟

أبو بكر: تلك «حمنة» زوجة «مصعب بن عمير»، تسأل فيما أرى عن ذويها ... انْعَ إليها أهلَها يا «سعد»!

سعد (يدنو منها)**:** يا «حمنة» استرجعي واستغفري لأخيك!

حمنة (في صبر وثبات)**:** إنا لله وإنا إليه راجعون ... اللهم اغفر له!

سعد: واسترجعي واستغفري لخالك!

حمنة (في صبر وثبات)**:** إنا لله وإنا إليه راجعون ... اللهم اغفر له!

سعد: واسترجعي واستغفري لزوجك!

حمنة (لا تملك نفسها أن تصيح)**:** «مصعب»؟! ... قُتِل؟! ... قُتِل مصعب زوجي؟! ... ويلاه ... ويلاه ... ويلاه!

(وتصيح وتولول، تذهب لا تلوي على شيء ...)

محمد (كالمخاطب لنفسه)**:** إن زوج المرأة منها لَبِمكان!

(يأتي نساء الأنصار ويبكين على باب المسجد.)

النساء (باكيات)**:**

بكَت عيني وحُق لها بُكاها — وما يُغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا — أ«حمزة» ذاكم الرجل القتيلُ
أُصِيب المسلمون به جميعًا — هناك وقد أُصِيب به الرسولُ
عليك سلام ربك في جنانٍ — مخالطُها نعيم لا يزولُ

محمد: من هؤلاء؟

أبو بكر: نساء الأنصار!

محمد (في تأثر)**:** رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم — ما علمتُ — لقديمة، مرُوهن فلينصرفن!

(يقوم سعد بن معاذ إلى النساء، فيشير إليهن بالانصراف ... يرتفع داخل المسجد صوت عبد الله بن أُبي ...)

ابن أُبي: أيها القوم ... هذا رسول الله بين أظهُركم، أكرمكم الله وأعزكم به؛ فانصروه!

المسلمون (ينهضون إليه)**:** اجلس أيْ عدو الله! ... لستَ لذلك بأهل؛ وقد صنعتَ ما صنعتَ!

ابن أُبي: ألا تستمعون إليَّ إذ أقول لكم انصروا رسول الله؟

المسلمون (يأخذون بثيابه)**:** أيها المنافق وهل نصرتَه أنت يوم انخذلتَ عنه بثلث الجيش؟! ... (يخرجونه من المسجد) لقد حُق عليك القتل!

ابن أُبي (خارجًا من المسجد)**:** والله لكأنما قلتُ شرًّا، أن قمتُ أشدد أمره!

سعد (ينهض إليه)**:** ما لك، ويلك؟!

ابن أُبي: قمتُ أشدد أمره، فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجبذونني ويعنِّفونني؛ لكأنما قلتُ شرًّا!

سعد: ويلك! ... ارجع يستغفرْ لك رسول الله!

ابن أُبي: والله ما أبتغي أن يستغفر لي!

(يذهب.)

محمد (لسعد وقد عاد)**:** أليس هذا «عبد الله بن أُبي»؟

سعد: نعم ... يا رسول الله!

محمد: ما له؟

(زيد بن أرقم يدنو من النبي.)

زيد: إنه منافق يا رسول الله! ... لقد سمعتُ منه قولًا عظيمًا في ذات يوم؛ فلقد ازدحم أحد الأنصار، وأحد المهاجرين، على الماء فاقتتلا ... فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار. وصرخ المهاجري: يا معشر المهاجرين. فغضب «ابن أُبي» للأنصاري، وقال في رهطٍ من قومه: «أوَقد فعلوها؟ ... قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلابيبَ قريش هذه إلا كما قالوا: سمِّن كلبك يأكلْك، أمَا والله لئن رجعْنا إلى المدينة ليُخرجَن الأعز منها الأذل!»

عمر: أوَهكذا قال؟

زيد (يمضي في كلامه)**:** نعم والله، ولقد أقبَل على من حضره من قومه فقال لهم أيضًا: «هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم»!

عمر (لا يتمالك)**:** يا رسول الله! ... مُر به «بلالًا» فليقتله!

محمد (في تفكير وإطراق)**:** أقتُلُه؟

عمر: نعم!

محمد: كلا!

عمر: لماذا يا رسول الله؟

محمد: كيف يا «عمر» إذا تحدَّث الناس أن «محمدًا» يقتل أصحابه؟ ... لا!

سعد (ينظر)**:** هذا ابنه قادمًا!

أبو بكر: أرى والله أنْ قد بلغه رأي المسلمين في أبيه!

ابن ابن أُبي (يمثل بين يدَي النبي)**:** يا رسول الله! ... إن أبي قد نافق فيما أسمع ... وقد بلغني أنك تريد قتله؛ فإن كنتَ لا بد فاعلًا، فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه!

محمد: أنت؟

ابن ابن أُبي: نعم! ... والله لقد علمَت الناس ما كان من رجل أبر بوالده مني؛ لكني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله! ... فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار!

محمد (في رفق وابتسام)**:** كلا، لن نقتله!

ابن ابن أُبي: لن نقتله؟!

محمد: بل نترفق به، ونُحسِن صحبته ما بقي معنا!

المنظر الخامس عشر

(في مكة أصوات الفرح والسرور تنطلق بين أرجائها …)

أبو سفيان: الآن فلنضرب الدفوف، ولتعزف لنا القيان!

خالد بن الوليد (يلتفت): انظروا … من هؤلاء؟

عمرو بن العاص (ينظر)**:** هم فيما أرى: رجُلان من أصحاب «محمد» قد جاء بهما رجال من «عضل» و«القارة»!

(يأتي رجال في سلاحهم معهم أسيران من أصحاب محمد؛ هما خبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة.)

أبو سفيان: ممن الرجال؟

الرجال: نحن من «عضل» و«القارة» وقد جئناكم بأسيرَين!

عمرو: أين وجدتموهما؟

الرجال: عند «محمد» … قدمْنا عليه فقلْنا له: إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين. فبعَث معنا نفرًا ستة من أصحابه، فخرجْنا، حتى إذا كنا على «الرجيع» غدرْنا بهم، ولم يرُعهم وهم في رحالهم إلا نحن بأيدينا السيوف، قد غشيناهم فأخذوا أسيافهم، ليقاتلونا؛ فقلنا لهم: «إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل «مكة».» فلم يَقبل ثلاثةٌ منهم، فقاتَلونا فقتلناهم ولحق بهم رابع، ونحن في بعض الطريق، أراد أن يستل سيفه فاستأخرْنا عنه ورمَيناه بالحجارة حتى قتلناه. وبقي هذان نريد أن نبيعهما لمن له عليهما ثأر من أهل «مكة»!

أبو سفيان: مرحى! … مرحى!

صفوان بن أمية: أنا أبتاع «زيدًا» لأقتله!

حجير بن إهاب: وأنا أبتاع «خبيبًا» لأقتله!

الرجال: جئنا أيضًا برأس أحد القتلى وهو «ابن أبي الأقلح» لنبيعه من «سلافة بنت سعد»!

خالد بن الوليد: نعم! … لقد كانت نذرَت حين أصاب ابنها «يوم أحُد» لتشربَن في قحفِه الخمر!

صفوان (يشير لعبده نسطاس)**:** إلى زيد … يا «نسطاس»! … اقتله!

نسطاس (يأخذ سيفًا ماضيًا ويقترب من زيد)**:** نعم!

أبو سفيان (لزيد)**:** يا «زيد»! … أتحب أن «محمدًا» عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟!

زيد (وقد أُعِدَّت عنقه للضرب)**:** والله ما أحب أن «محمدًا» الآن في مكانه الذي هو تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي!

أبو سفيان (لمن حوله في عجب)**:** ما رأيتُ من الناس أحدًا، يحب أحدًا؛ كحب أصحاب «محمد» «محمدًا»!

نسطاس (يضرب عنق زيد)**:** خذها إذن!

حجير: إني أريد أن يُصلَب «خبيب»!

أبو سفيان: اصلبوه!

(يقومون إلى خبيب.)

خبيب: إن رأيتم أن تدَعوني حتى أركع ركعتَين؛ فافعلوا!

أبو سفيان: دونك فاركع!

(خبيب يركع ركعتين.)

حجير: هاتوا الخشبة!

(خبيب ينهض إليهم.)

أبو سفيان: أفَرغتَ؟

خبيب: نعم … أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولتُ جزعًا من القتل؛ لاستكثرتُ من الصلاة!

حجير: ارفعوه على الخشبة وأوثِقوه!

(يرفعونه ويصلبونه ويوثِقونه.)

أبو ميسرة: أعطوني الرمح أطعنْه حتى يموت!

حجير (يعطيه الرمح)**:** خذ!

خبيب (وهو مصلوب)**:** اللهم إنَّا قد بلغْنا رسالة رسولك فبلغْه الغداة ما يُصنَع بنا!

أبو سفيان: أين نبيك يدفع عنك القتل؟!

خبيب (صائحًا ووجهه للسماء)**:** اللهم أحصهم عددًا؛ واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا!

(قريش تقف واجمة لهذه الدعوة.)

عمرو: ما لكم وجمتم؟! اضطجِعوا لجنوبكم حتى تزول عنكم الدعوة!

(قريش تضطجع في الحال لجنوبها.)

حجير: اطعن يا «أبا ميسرة»!

(يطعن خبيبًا حتى يموت.)

المنظر السادس عشر

(في المدينة ... النبي أمام المسجد.)

أبو بكر: يا رسول الله ... إن النفر الستة من أصحابك، الذين بعثتَهم مع رهط «عضل» و«القارة»؛ ليعلموهم شرائع الإسلام قد غدر بهم القوم ... وقتلوا منهم من قتلوا، وأسلموا الباقين لقريش فقتلوهم!

محمد: إنا لله وإنا إليه راجعون!

أبو بكر: وإن نفرًا من «اليهود» يطوفون بالقبائل يحزِّبون علينا الأحزاب ... ولقد ذهبوا إلى «مكة» يدعون قريشًا إلى حربك قائلين لهم فيما بلغني: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.» وإن «قريشًا» قالت لهم: «يا معشر «يهود» إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحْنا نختلف فيه نحن و«محمد»، أفَدِيننا خير أم دينه؟» ... فقالوا لهم: «بل دينكم خير من دينه!»

محمد (يتلو)**:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾!

أبو بكر: نعم! ... قد لعنهم الله!

عمر: أوَنشِطوا للحرب؟

أبو بكر: واتَّعدوا له، واجتمَعوا من كل القبائل، وخرجوا في جيش لم تر العرب مثله!

عمر: وهل لنا قِبَل بحرب العرب مجتمعة؟
محمد: نعم! ... إن العرب ترمينا الآن عن قوسٍ واحدة!
عمر: وما الرأي؟
محمد: أيها الناس ... أشيروا عليَّ!

(سلمان الفارسي يتقدم.)

سلمان: يا رسول الله! ... إن عندي رأيًا!
محمد: قل يا «سلمان»! ... قل يا «سلمان»!
سلمان: نجعل حول المدينة خندقًا!
عمر: خندقًا؟!
سلمان: إنا — معشر الفارسيين — كنا إذا دهمَنا عدو، خندقْنا على أنفسنا!
محمد (يفكر قليلًا)**:** نِعم الرأي! ... اضربوا الخندق على «المدينة»!

(ينهض، وينهض معه المسلمون.)

عمر: الآن يا رسول الله؟
محمد: الآن! ... وإني أعمل فيه معكم!

المنظر السابع عشر

(الخندق وقد تم حفره إلا صخرة فيه يعالجون كسرها.)

أبو بكر: لقد حفر الخندق!
عمر: نعم! ... ولم تبقَ إلا ناحية!
أبو بكر: تلك ناحية «بني قريظة»، وهم حلفاؤنا من «يهود»، ولا يأتينا منهم شر!
سلمان (وقد جهد تعبًا أن يكسر الصخرة)**:** يا رسول الله! ... لقد غلُظَت علينا هذه الصخرة!
محمد (يقبِل عليهم)**:** آتوني إناءً من ماء!
سلمان (يسرع، ويُحضر إناءً)**:** ها هو ذا!
محمد (يتفل في الماء وينضح به الصخرة)**:** هات المِعوَل يا «سلمان»!
سلمان: خذ يا رسول الله!

محمد (يرفع المعول فوق الصخرة)**:** بسم الله!

(ثم يضرب الصخرة ثلاث ضربات، فيلمع برقٌ تحت المعول، وتنهار الصخرة.)

المسلمون: الله أكبر!

عمر: قد انهارت الصخرة وعادت كالكثيب!

محمد (يعيد المعول إلى سلمان)**:** خذ! ... إنها الآن لا ترد فأسًا ولا مِسحاة!

سلمان: بأبي وأمي يا رسول الله! ... ما هذا الذي رأيتُ قد لمع تحت المعول وأنت تضرب الضربات الثلاث!

محمد: أوَقد رأيتَ ذلك يا «سلمان»؟

سلمان: نعم!

محمد: أما الضربة الأولى فإن الله فتح عليَّ بها «الشام»، والله لقد أبصرتُ قصورها الحمر من مكاني هذا؛ وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها «فارس» والله لقد أبصرتُ قصر «المدائن الأبيض» الآن ... وأما الثالثة فقد أعطاني الله بها مفاتيح «اليمن» والله لقد أبصرتُ الساعة باب «صنعاء»!

المسلمون (فرحين)**:** اللهم لك الحمد!

(تمر بقرب النبي فتاة في ثوبها حفنة من تمر، فتردِّد ما يقول الناس ...)

الفتاة: اللهم لك الحمد!

محمد: تعالَي يا بُنية، ما هذا الذي معك؟

الفتاة: يا رسول الله، هذا تمر بعثَتني به أمي إلى أبي «بشير» وخالي «عبد الله» يتغدَّيانه!

محمد (يمد كفَّيه)**:** هاتيه!

(الفتاة تضع التمر في كف النبي.)

الفتاة: إنه لا يملأ كفيك!

محمد: ابسطوا ثوبًا!

(يأتي بلال بثوب، ويبسطه على الأرض فيدحو النبي بالتمر عليه.)

بلال: قد تبدَّد التمر فوق الثوب!

محمد (لبلال)**:** اصرخ في أهل «الخندق» أن هلمُّوا إلى الغداء!

المنظر الثامن عشر

(المسلمون عند الخندق وقد حاصرَهم العدو، وربض بخيامه وعسكرِه في الجهة المقابلة.)

أوس (من المسلمين)**:** اللهم ارفع عنا الحصار!

معتب (من المسلمين ناظرًا إلى جيش العدو)**:** إنهم بحرٌ طام!

أوس: لولا الخندق لأغرقَنا!

معتب: نعم لقد صدَّهم «الخندق» يوم جاءوا ووقفوا عليه، وصاحوا إذ رأوه: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!

أوس: نعم ... تلك مكيدةٌ فارسية، ولكنهم مع ذلك لم يبرحوا، وأقاموا قبالتنا بضعًا وعشرين ليلة!

معتب: صدقتَ يا «أوس» وما يكاد ينكشف لهم واحد منا حتى يرموه بالنبل!

أوس (يريد أن ينصرف)**:** اللهم أطِشْ سهامهم ... إني ذاهب!

معتب: إلى أين يا «أوس»؟

أوس: إلى بعض حاجتي، ثم أعود!

معتب: إلى الغائط؟ ... لا تفعل! ... إن المكان لعورة، وقد أُصِيب بنبل العدو كل من ذهب قبلك!

أوس: وما نصنع؟ ... لقد أتانا العدو من فوقنا، ومن أسفل منا، ولا نستطيع لأنفسنا حراكًا!

معتب: حقًّا!

أوس (يلتفت إلى جهة النبي)**:** انظر يا «معتب»! ... هذا رسول الله مطرقًا مليًّا!

معتب (يلتفت)**:** إنه يرى أن قد اشتد علينا البلاء!

أوس: إن «أبا بكر» و«عمر» يتسارَّان ... لكأني أرى أن قد جل الخطب! ... أنظِرني حتى أسترق السمع وأعلم الخبر!

(يقترب من أبي بكر وعمر.)

عمر (همسًا في دهش)**:** حلفاؤنا من «بني قريظة» خانوا عهدنا؟!

أبو بكر (همسًا في دهش)**:** نعم!

محمد (يرفع رأسه، ويخاطب سعد بن معاذ وابن عبادة وابن رواحة)**:** انطلِقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغَنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ … فإن كان حقًّا فالحَنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس!

(سعد وصاحباه ينطلقون مسرعين.)

أوس (يعود إلى معتب هامسًا)**:** أندري ما الأمر؟ … لقد أُخِذنا من كل جانب!

معتب: كيف؟

أوس: حلفاؤنا من «بني قريظة» قد خانوا عهدنا!

معتب: لئن كنتَ قد صدقتَني؛ فقد والله أُتِينا!

أوس: وما الرأي؟

معتب: لا أرى إلا أننا هالكون!

أوس: والنصر الذي وعدَنا نبي الله؟

معتب: لست أدري والله … ولقد وعدَنا «محمد» أن نأكل كنوز «كسرى» و«قيصر»، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!

أوس (يلتفت نحو النبي)**:** انظر! … «علي بن أبي طالب» يسرع إلى النبي في أمر!

علي (للنبي)**:** يا رسول الله! … أرى فرسانًا قد تيمَّموا مكانًا ضيقًا من «الخندق» فضربوا خيولهم، فاقتحمَت منه!

أبو بكر (ينظر)**:** نعم … وإني والله لأرى على رأسهم ضرغام العرب وصنديدهم «عمرو بن ود»!

علي: إيذَن لي يا رسول الله أخرج إليهم في نفر من المسلمين؛ حتى نأخذ عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم!

أبو بكر (يلتفت)**:** هذا «عمرو بن ود» قد برز!

عمر: وعليه درعه!

(عمرو بن ود يتقدم على فرسه.)

ابن ود: هل من مبارز؟

علي (للنبي)**:** أنا له يا نبي الله!

محمد (لعلي)**:** اجلس ... إنه «عمرو»!

عمرو بن ود (يصيح)**:** أين جنتكم التي تزعمون أن من قُتِل منكم دخلها ... أفلا تُبرزون لي رجلًا؟

علي: أنا يا رسول الله!

محمد: إنه «عمرو» ... اجلس!

(عمرو بن ود يصيح):

ولقد بححتُ من النداء بجمعكم هل من مبارِزْ؟
ووقفتُ إذ جَبن المُشجـعُ موقف القِرن المناجِزْ

علي: يا رسول الله ... أنا له!

محمد (في خشية)**:** إنه «عمرو»!

علي (في قوة)**:** وإن كان «عمرًا» ... ايذن لي!

محمد (في صوتٍ خافت، بين خشية ورجاء)**:** أذنتُ!

(علي ينطلق وهو مقنَّع بالحديد إلى عمرو بن ود صائحًا):

توضع في شطرين: لا تعجلنَّ فقد أتاك مُجيب صوتك غير عاجِز
إنـي لأرجو أن أقيـم عليك نائحة الجنائزْ

ابن ود (في غضب وصوت كالرعد)**:** من أنت؟

علي: أنا «علي بن أبي طالب»!

ابن ود (في شيء من الرفق)**:** غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك ... لقد كان أبوك لي صديقًا ... إني أكره أن أهريق دمك!

علي: ولكني والله لا أكره أن أهريق دمك!

ابن ود (مغضبًا يقبل عليه راكبًا فرسه)**:** إلى النزال!

علي: كيف أقاتلك وأنت على فرسك؟ ... ولكن انزل معي!

(ابن ود ينزل عن فرسه، ويضرب عليًّا بسيفه.)

ابن ود: خذ يا سفيه!

(علي يتلقَّى الضربة بدرقته، ثم يضرب خصمه بسيفه على حبل العاتق.)

علي: خذ يا عدو الله!

(يسقط ابن ود قتيلًا.)

المسلمون (يهتفون)**:** الله أكبر! … الله أكبر!
أبو بكر (في فرح للنبي)**:** إن «عليًّا» قد قتله!
عمر: نعم … ها هو ذا عليٌّ مقبلًا وهو متهلل!
علي (يحضر باسمًا)**:** يا رسول الله! … لقد خرجَت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمَت الخندق هاربة بعد أن قُتِل الأسد!
عمر (لعلي)**:** هلَّا سلبتَه درعه؟ … فإنه ليس في العرب درعٌ خير منها!
علي: إني حين ضربتُه استقبلَني بسوأته، فاستحيَيتُ ابن عمي أن أستلبه!

(أبو بكر يلتفت يمينه.)

أبو بكر: «سعد بن معاذ» قد عاد مع صاحبَيه!

(يأتي سعد.)

سعد (للنبي في لهجةٍ ذات مغزى)**:** … «عضل» و«القارة»!
محمد (همسًا في تجهُّم كالمخاطب لنفسه)**:** «عضل» و«القارة»!
عمر (همسًا لأبي بكر)**:** ماذا يعني «سعد»؟!
أبو بكر (همسًا لعمر)**:** يعني أن «بني قريظة» قد غدرَت بنا غدر «عضل» و«القارة» بأصحاب «الرجيع»!
عمر: بخبيب وأصحابه؟!
أبو بكر: نعم!
عمر: وما الرأي؟
أبو بكر (ينظر إلى محمد)**:** صه!
محمد (يرفع رأسه متجلدًا، ويصيح)**:** الله أكبر! … أبشروا يا معشر المسلمين!

(سعد يلتفت حوله، كأنما يبحث عن مصدر البُشرى.)

محمد (يتفكر قليلًا): اقترب يا «سعد» وأشِر عليَّ! … إني أرى أن نُعطي «غطفان» ثلث ثمار المدينة على أن ترجع برجالها ومن تابعها عنا!

سعد: يا رسول الله، أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟

محمد: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيتُ العرب قد رمَتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم، إلى أمرٍ ما!

سعد: يا رسول الله! … قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرًى أو بيعًا، أفحين أكرمَنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه؛ نعطيهم أموالنا … والله ما لنا بهذا من حاجة … لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم!

محمد: أنت وذاك!

عمر: يا رسول الله! … هذا رجل من «غطفان» قادمًا إليك!

محمد: أرسِله!

(يأتي نعيم بن مسعود.)

نعيم: يا رسول الله! … إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرني بما شئتَ!

محمد: إنما أنتَ فينا رجلٌ واحد، فاخذُل عنا إن استطعتَ؛ فإن الحرب خدعة!

نعيم: قد فعلتُ!

سعد (في استبشار؛ كالمخاطب لنفسه): ماذا فعلتَ؟

نعيم (للنبي): ذهبتُ إلى «بني قريظة» وكنتُ لهم نديمًا، فقلتُ: يا «بني قريظة» قد عرفتم وُدي إياكم. قالوا: صدقتَ، لستَ عندنا بمتَّهم. فقلتُ: إن «قريشًا» و«غطفان» ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره، وإن «قريشًا» و«غطفان» قد جاءوا لحرب «محمد» وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم؛ فإن رأوا نهزةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم؛

فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم «محمدًا» حتى تناجزوه. فقالوا: لقد أشرتَ بالرأي!

فغادرتهم وذهبتُ إلى «قريش»، فقلتُ لـ «أبي سفيان» ومَن معه من رجال «قريش»: قد عرفتم وُدي لكم وفراقي «محمدًا»، وإنه قد بلغني أمر، قد رأيتُ عليَّ حقًّا أن أبلغكموه؛ نصحًا لكم، فاكتموا عني! ... قالوا: نفعل! ... قلت: إن معشر «يهود» قد ندموا على غدرهم بمحمد، وقد أرسَلوا إليه أنهم قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم يعرضون عليه أن يأخذوا له من «قريش» و«غطفان» رجالًا من أشرافهم؛ ليضرب أعناقهم، ثم يكونون معه على من بقي منكم حتى يستأصلوكم؛ فإن بعثَت إليكم «يهود» يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا!

ثم تركتُهم وخرجتُ، حتى أتيتُ «غطفان»، فقلتُ: يا معشر «غطفان» ... إنكم أصلي وعشيرتي، وأحبُّ الناس إليَّ، ولا أراكم تتهمونني! ... قالوا: صدقتَ! فقلتُ لهم مثلما قلتُ لقريش، وحذرتُهم ما حذرتُهم ... وبعدُ ...

محمد: جزاك الله خيرًا، يا نعيم! ... وبعدُ؟

(تعصف ريحٌ شديدة.)

نعيم (يلتفت)**:** ما هذه الريح العاصفة!

سعد: وبعد يا «نعيم»! ... ما حدث؟

نعيم: حدث فيما بلغني أن «أبا سفيان» ورءوس «غطفان» أرسلوا إلى «بني قريظة» قائلين لهم: إنا لسْنا بدار مقام ... قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نُناجز «محمدًا»، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثًا فمُسخوا قردة وخنازير، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم «محمدًا» حتى تعطونا رهنًا من رجالكم. فلمَّا سمع ذلك «أبو سفيان» ورجاله، قالوا: والله إن الذي حدَّثنا «نعيم» لحق. فأرسلوا إلى «بني قريظة»: «إنا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا.» فقالت «بنو قريظة» عند ذاك: «إن الذي ذكر لنا «نعيم» لحق، إنا والله لا نقاتل معهم.»

سعد: أفَسد ما بينهم وبين «قريش»؟

نعيم: هذا ما انتهى إليَّ!

أبو بكر: الحمد الله! ... خذل الله بينهم!

عمر: يا رسول الله! ... انظر! ... إن الريح قد كفأَت قدورهم، وطرحَت آنيتهم، وهدمَت بناءهم!

محمد: تلك جنود الله!

علي (يتقدم فرحًا)**:** يا رسول الله، أبشر!

عمر: ماذا؟

علي: قريش ترحل!

عمر (ينظر)**:** نعم ... أرى «أبا سفيان» على جمله في الناس ...

أبو بكر: صه! ... إنه يريد أن يخطبهم!

أبو سفيان (عن كثب، قائمًا على جمله)**:** يا معشر «قريش»! ... إنكم واللات ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراع والخف! ... وأخلفَتنا «بنو قريظة»، وبلغَنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترَون؛ ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل!

(يضرب جمله وينطلق والناس في أثره.)

محمد (متنفسًا الصعداء)**:** الحمد لله! ... لقد انطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال!

علي: يا رسول الله! ... أننصرف عن «الخندق» ونضع السلاحَ؟

محمد: نعم!

(وفجأة ينزل عليه الوحي.)

جبريل: أوَقد وضعتَ السلاح؟

محمد: نعم!

جبريل: ما وضعَت الملائكة السلاح بعدُ ... إن الله يأمرك يا «محمد» أن تسير إلى «بني قريظة»؛ فإني عامدٌ إليهم فمزلزل بهم حصونهم!

(يصيح جبريل ...)

محمد (يصيح)**:** أين «بلال»؟

بلال (يقبِل مسرعًا)**:** لبيك يا رسول الله!

محمد: أذِّن في الناس: «من كان سامعًا مطيعًا؛ فلا يصلينَّ العصر إلا في «بني قريظة».»

المنظر التاسع عشر

(محمد وجيشه أمام حصون بني قريظة.)

علي (راجعًا من قرب الحصون)**:** يا رسول الله! ... لا عليك ألَّا تدنو من هؤلاء الأخابث!

محمد (متجهًا إلى قرب الحصون)**:** لمَ؟ ... أظنك سمعتَ منهم لي أذًى!

علي: نعم! ... سمعتُهم ينالون منك!

محمد: قد أُوذِي «موسى» بأكثر من هذا!

(يدنو من الحصون، فيراه أحد رؤساء بني قريظة؛ وهو كعب بن أسد.)

كعب (صائحًا)**:** من هذا؟

محمد (يصيح)**:** يا إخوة القردة والخنازير! ... إيَّاي ... إيَّاي! ... هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟!

كعب (همسًا لمن حوله من بني قريظة)**:** هذا «أبو القاسم»!

بنو قريظة: «أبو القاسم»؟! ... ما عهدْناه فحاشًا!

كعب: يا معشر «يهود»! ... قد نزل بكم من الأمر ما ترَون، وإني عارضٌ عليكم خلالًا ثلاثًا؛ فخُذوا أيَّها شئتم!

بنو قريظة: وما هي؟

كعب: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فتأمَنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم!

بنو قريظة: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره!

كعب: إذا أبَيتُم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتُل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى «محمد» وأصحابه، رجالًا مصلِتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلًا ولا نسلًا نخشى عليه!

بنو قريظة: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟!

كعب: إن أبَيتُم عليَّ هذه؛ فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون «محمد» وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلَّنا نصيب منهم غِرَّة!

بنو قريظة: نفسد سبتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يُحدِث مَن كان قبلنا، إلا مَن علمتَ، فأصابه ما لم يخفَ عليك من المسخ!

كعب (ساخطًا)**:** ما بات رجل منكم — منذ ولدَته أمه — ليلةً واحدة من الدهر حازمًا!

أخطب: عندي رأي!

بنو قريظة: ما هو؟

أخطب: نطلب إلى «محمد» أن يبعث إلينا «أبا لبابة»؛ لنستشيره في أمرنا!

بنو قريظة: نعم الرأي!

كعب: انتظروا حتى أفعل! ... (ينادي) يا «أبا القاسم»! ... أرسِل إلينا حليفنا «أبا لبابة» نستشيره في أمرنا!

محمد: لكم هذا!

(ثم يبتعد آمرًا من حوله بإرسال أبي لبابة.)

كعب: أوَتنزلون على رأيه؟

بنو قريظة: نعم!

كعب: ها هو ذا مقبلًا!

بنو قريظة: «أبا لبابة»! ... «أبا لبابة»!

(يقبِل أبو لبابة، ويقوم إليه الرجال ويجهش إليه النساء والصبيان، يبكون في وجهه.)

أبو لبابة (في رقة)**:** أتبكون!

النساء: حليفنا «أبا لبابة»! ... رقَّ لحالنا!

الرجال: يا «أبا لبابة» أترى أن ننزل على حكم «محمد»؟!

أبو لبابة (يشير بيده إلى حلقه، ويهمس لهم)**: نعم!** ... إنه الذبح!

(القوم يصمتون واجمين.)

بنو قريظة: إنا ننزل إذَن على حكم «محمد»!

كعب (يصيح)**:** يا «أبا القاسم» ... إنا قد نزلْنا على حكمك فاصنع بنا ما أنت صانع!

محمد (صائحًا بهم)**:** اختاروا رجلًا يحكم فيكم!

كعب (لبني قريظة)**:** مَن ترضون يحكم فينا؟

بنو قريظة: «سعد بن معاذ»!

كعب: يا محمد! ... ننزل على حكم «سعد بن معاذ»!

محمد (لمن حوله)**:** عليَّ بسعد!

عمر: ألا ننزلهم أولًا من حصونهم، ونحبسهم في مكانٍ حتى يحكم في أمرهم؟

محمد: نعم! ... اذهب إليهم يا «علي»!

علي (يصبح)**:** يا كتيبة الإيمان!

(ثم يذهب إلى الحصون على رأس الكتيبة.)

أبو بكر (للنبي)**:** هذا «سعد بن معاذ» قد أقبَل في رهطٍ من «الأوس»!

الأوس (همسًا لسعد)**:** يا «أبا عمرو»! ... أحسِن في مواليك من «بني قريظة» فإن رسول الله إنما ولَّاك ذلك لتُحسِن فيهم!

سعد (في قوة)**:** لقد أتى لسعد ألَّا تأخذه في الله لومة لائم!

محمد (للأنصار)**:** قوموا إلى سيدكم!

الأنصار (قائمين إلى سعد)**:** يا «أبا عمرو»! ... إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك؛ لتحكم فيهم!

سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لِما حكمتُ؟

الأنصار: نعم!

سعد (مشيرًا إلى النبي)**:** وعلى من ها هنا؟

محمد: نعم!

سعد: إني أحكم فيهم أن تُقتَّل الرجال، وتُقسَّم الأموال وتُسبَى الذراري والنساء، وتكون الدُّور للمهاجرين دون الأنصار!

الأنصار: إخوتُنا ... كنا معهم!

سعد: إني أحببتُ أن يستغنوا عنكم!

محمد (لسعد)**:** لقد حكمتَ فيهم بحكم الله، من فوق سبعة أرقِعَة!

عمر: أرى يا رسول الله أن نخندق في سوق المدينة خنادق، ثم نبعث إلى رجالهم، فنضرب أعناقهم في تلك الخنادق!

محمد: نعم!

عمر: وأن نبعث أحدًا بسبايا من سباياهم إلى «نجد»، فيبتاع لنا بها خيلًا وسلاحًا!

محمد: نعم!

المنظر العشرون

(النبي عند الخنادق، ورجال بني قريظة يُؤتَى بهم أرسالًا فتُضرَب أعناقهم.)

بنو قريظة (مقيَّدين في أغلال من حبال، وسائرين إلى الخندق): إنهم يبيعون نساءنا في أسواق «نجد»!

كعب: لقد ارتأيتُ لكم ما هو خير من هذا فأبَيتُم!

بنو قريظة: وقد اصطفى «محمد» لنفسه من بين السبايا «ريحانة بنت عمرو»!

حيي بن أخطب: أوَقد أسلمتَ؟!

بنو قريظة: مَن ذا يدري؟!

كعب (متنهدًا): كُتِب علينا كل هذا!

بنو قريظة (لكعب): يا كعب! ... ما تراه يصنع بنا؟

كعب (نافد الصبر): أوَفي كل موطن لا تعقلون؟ ... ألا ترَون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ ... هو والله القتل!

بنو قريظة: القتل؟!

كعب: ألا ترَون أمامكم الخنادق تجري فيها الدماء!

حيي بن أخطب (وقد أشرف على الخندق): وهذا «محمد»، يأمر بضرب الأعناق!

محمد (وقد أبصر حيي بن أخطب): ألم يُخزِك الله يا «حيي»؟

حيي (للنبي): كل نفسٍ ذائقة الموت، ووالله ما لُمت نفسي في عداوتك!

الجلاد: تقدَّم!

حيي (للناس): أيها الناس! ... إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدَر وملحمة كتبها الله على «بني إسرائيل»!

(ثم يجلس فيضرب عنقه الجلاد.)

الفصل الرابع

المنظر الأول

(عائشة في مسكنها مع خادمتها بريرة.)

بريرة: ما لك؟

عائشة (مطرقة)**:** ما بي من شيء!

بريرة: أتكتئبين وقد عاد النبي ظافرًا من غزوةٍ جديدة؟!

عائشة: «بني المُصطلِق»؟!

بريرة: نعم!

عائشة (في قلق)**:** أجاءوا بسبايا كثيرات؟

بريرة: نعم، ومن بينهن ابنه سيد القوم، وقد وقعَت في سهم أحد الأنصار!

عائشة (تنفرج أساريرها)**:** وقعَت في سهم أحد الأنصار! ... اللهم حمدًا! ... (تعود إلى القلق والإطراق) نعم ... لكن هناك أخرى!

بريرة: من؟ ... تلك المرأة التي خطبها؟

عائشة (في إطراق)**:** لقد أرسَلني أنظر إليها!

بريرة: وماذا وجدتِ؟!

عائشة (ترى النبي داخلًا)**:** صه! ... اذهبي يا «بريرة»!

محمد: أتوجهتِ إليها يا «عائشة»؟

عائشة: نعم!

محمد: وماذا رأيتِ منها؟

عائشة (في فتور)**:** ما رأيتُ طائلًا!

محمد (باسمًا): بلى ... لقد رأيتِ خالًا في خدها، اقشعرَّت منه كل شعرة في جسدك!
بريرة (تدخل): يا رسول الله! ... امرأة من سبايا «بني المصطلق» أتتك في أمرٍ هالها!
محمد: من هي؟
بريرة: «جويرية بنت الحارث»!
محمد: أين هي؟
بريرة: بالباب!
محمد (متجهًا إلى الباب): تعالَي يا «جويرية»!
عائشة (همسًا): يا «بريرة»!
بريرة (همسًا): إنها امرأةٌ حلوة ملاحة!

(عائشة تدنو من الباب وتُلقي نظرة على المرأة ... فيصفر وجهها، وتهمس كالمخاطبة لنفسها.)

عائشة: نعم!
بريرة (همسًا): والله ما هو إلا أن رأيتها الساعة على بابك، فكرهتها!
عائشة (كالمخاطبة لنفسها): أنا كذلك!
بريرة (همسًا): لقد عرفتُ أنه سيرى منها والله ما رأينا!

(عائشة تطرق مليًّا صامتة.)

محمد (بالباب): ما شأنك يا «جويرية»!
جويرية (من الخارج): يا رسول الله! ... أنا بنت «الحارث بن أبي ضرار» سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعتُ في السهم لـ «ثابت بن قيس» فكاتبتُه على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي!
محمد (يطيل إليها النظر): هل لك في خير من ذلك؟
جويرية: ومن هو يا رسول الله؟
محمد: أقضي عنك كتابتكِ وأتزوجك!
جويرية (بغير تردد): نعم يا رسول الله!
محمد: قد فعلتُ!
عائشة (من خلفه غير متمالكة): أتتزوجها؟
محمد (يلتفت إلى عائشة): نعم!

عائشة (تخفي ما بها وتبتسم)**:** على خير طائر!
محمد: أتكرهين ذلك؟
عائشة: ليس لي أن أكره ما تحب!
محمد: أصبتِ!
عائشة: لقد حُبِّب إليك النساء!
محمد: حُبِّب إليَّ الطيب والنساء!

المنظر الثاني

(أمام المسجد بالمدينة ... بعض الناس يتهامسون ... على رأسهم «عبد الله بن أُبي» وحسان بن ثابت ومسطح.)

حسان: اصدُقْنا الخبر يا «مسطح»!
مسطح: والله لقد صدقتُكم ... إن العسكر كله يتحدث به!
حسان (في عجب)**:** «عائشة» و... «صفوان»؟!
مسطح: نعم ... لقد رأيتُها بعيني على بعيره فيمن رآهما، وقد طلعا مع الصبح، وحدهما لا ثالث معهما، وقد عاد العسكر من غزوة «بني المصطلق» ونزل واطمأن!
ابن أُبي: إن «صفوان» فتًى جميل في الرجال!
حسان: وهي صغيرة السن ...

(أحد الأنصار ينهض صائحًا غير متمالك ...)

الأنصاري: كفُّوا عن هذا القول واتقوا الله!

المنظر الثالث

(عائشة، في مسكنها على فراش المرض، وإلى جوارها أمها زينب أم رومان.)

عائشة: يا أمي! ... أتذكرين أني كنتُ إذا اشتكيتُ، رحمني رسول الله ولطف بي؟
زينب (مطرقة)**:** نعم!
عائشة: إنه لم يفعل ذلك بي في شكواي هذه!

(زينب تطرق ولا تجيب.)

عائشة (تنظر إلى وجه أمها)**:** ما للونك مصفرًّا؟

زينب: لا شيء بي!

عائشة: إنك تكتمينني أمرًا!

أم مسطح (تدخل مسرعة هامسة)**:** رسول الله!

(زينب تنهض، ويدخل النبي.)

محمد (متغير الوجه)**:** كيف تيكُم؟!

زينب (في إطراق)**:** بخير يا رسول الله!

(يخرج النبي دون أن ينظر إلى عائشة، وتخرج زينب في أثره تشيعه.)

عائشة (تتبعه بأنظارها حتى يذهب، ثم تلتفت إلى أم مسطح)**:** أرأيتِ جفاءه لي؟

أم مسطح (تنظر إليها مشفقة)**:** صبرًا يا «بنت أبي بكر»!

عائشة: لقد جاء وانصرف، دون أن يخاطبني بكلام! ... إني أرى في وجهه شيئًا ما كنتُ أراه من قبل!

أم مسطح (كالمخاطبة لنفسها)**:** تعِسَ «مسطح»!

عائشة: ماذا تقولين؟

أم مسطح: تَعِس «مسطح»!

عائشة: لماذا تقولين ذلك له؟ ... بئس لَعَمْر الله ما قلتِ لرجُل من المهاجرين ... قد شهد «بدرًا»!

أم مسطح: أوَتجهلين ما يتحدث به الناس؟

عائشة (في قلق)**:** بماذا يتحدث الناس؟

أم مسطح: أنتِ و«صفوان»؟

عائشة (في قلق)**:** ماذا؟

أم مسطح: ليلةَ عادَ العسكرُ من «غزوة بني المصطلق» قد رآكما «مسطح» منفردَين، وأنتِ على بعير «صفوان»، وحدَّث به الناس، ولا أرى إلا أن النبي قد علم به!

عائشة (صائحة قائمة مستوية في فراشها)**:** أنا و«صفوان»؟

أم مسطح: إني أراه والله حديث إفك!

عائشة: أنا و«صفوان»؟! ... أنا؟ ... أنا؟

(تنفجر باكية.)

أم مسطح: هوني عليك! ... هوني عليك!

زينب (تعود مسرعة)**:** ما بكاؤك هذا؟

عائشة (لأمها)**:** يغفر الله لك! ... تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟!

زينب (مطرقة)**:** أي بنية، خفضي عليك الشأن؛ فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر؛ إلا كثَّرن وكثَّر الناس عليها!

عائشة (تبكي)**:** أنا و«صفوان»؟! أنا و«صفوان»؟!

زينب (في ألم)**:** لا تبكي هذا البكاء!

عائشة (لأم مسطح وهي تجهش)**:** أتقولين إن «مسطحًا» قد رآنا؟!

أم مسطح: هوني عليك إنه حديث إفك!

عائشة (باكية)**:** إني ... إني حقًّا كنت على بعير «صفوان» ...

أم مسطح (في عجب)**:** حقًّا؟!

زينب (تلتفت إلى ابنتها)**:** أنت؟!

عائشة: انتظرا، أقص عليكما الخبر!

زينب: قصي!

عائشة (تكفكف دموعها)**:** تعلمان لمَّا كانت غزوة «بني المصطلق» اقترع رسول الله بين نسائه كما يصنع، فخرج سهمي عليهن، فخرج بي، فلما فرغ من سفره ذلك، وجَّه قافلًا حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلًا فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل فارتحل الناس، وخرجتُ لبعض حاجتي وفي عنقي عقد فيه «جَزْع ظَفَار» فلما فرغتُ انسلَّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعتُ إلى الرحل ذهبتُ ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعتُ إلى مكاني الذي ذهبتُ إليه فالتمسته حتى وجدتُه، وجاء القوم الذين كانوا يرحِّلون لي بعيري، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنتُ أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكُّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعتُ إلى العسكر وما فيه من داعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس فتلفَّفتُ بجلبابي، ثم اضطجعتُ في مكاني وعرفتُ أن لو افتُقِدتُ لرُجِع إليه ... فوالله إني لمضطجعة إذ مر

بي «صفوان السلمي» وقد كان تخلَّف عن العسكر لبعض حاجته، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ... ظعينة رسول الله! ... وأنا متلففة في ثيابي، قال ما خلَّفكِ يرحمك الله؟ ... فما كلمتُه، ثم قرَّب البعير، فقال: اركبي. واستأخَر عني، فركبتُ، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعًا يطلب الناس، فوالله ما افتُقِدتُ حتى أصبحتُ، ونزل الناس، فلمَّا اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا ... ووالله ما أعلم بشيء من ذلك إلا منكِ يا «أم مسطح» الآن!

أم مسطح: لا تبكي!

عائشة: الآن أدركتُ علة ما كنتُ أنكر من رسول الله! ... إني لأدرك الساعة ما به!

المنظر الرابع

(محمد قائم في الناس يخطبهم أمام المسجد.)

محمد: «أيها الناس! ... ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمتُ منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي؟!»

(ينهض أسيد بن خضير.)

أسيد: يا رسول الله! ... إن يكونوا من «الأوس» نكفكهم، وإن يكونوا إخواننا من الخزرج، فمُر بأمرك؛ فوالله إنهم لأهل أن تُضرَب أعناقهم!

(ينهض سعد بن عبادة.)

سعد: كذبتَ لعَمر الله! ... لا تُضرَب أعناقهم، أمَا والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنك قد عرفتَ أنهم من «الخزرج»، ولو كانوا من قومك ما قلتَ هذا!

أسيد: كذبتَ لعَمر الله! ... ولكنك منافق تجادل عن المنافقين!

(الناس يتساورون، ويكاد يكون بين الفريقين شر.)

محمد (ينزل بينهم)**:** انفضوا! ... انفضوا!

علي (يصيح في الناس)**:** انفضوا أيها الناس؛ كما أمركم رسول الله!

محمد: ابقَ أنت يا «علي»!

علي: أنا يا رسول الله؟

محمد (وهو ينظر إلى أسامة بن زيد)**:** نعم وابقَ أنت يا «أسامة»!

(ينصرف الناس، ويبقى النبي وعلي وأسامة.)

أسامة: فداك أبي وأمي يا رسول الله!

محمد: أشيرا عليَّ!

أسامة: يا رسول الله أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل!

محمد: وأنت يا «علي» ما ترى؟

علي: يا رسول الله إن النساء لكثير! ... وإنك لقادر على أن تستخلف، وسلْ جاريتها فإنها ستصدقك!

محمد: عليَّ بالجارية!

علي (يخطو نحو مسكن النبي وينادي)**:** يا «بريرة»!

بريرة (تخرج مسرعة)**:** لبيك!

علي (يقبض على ذراعها ويضربها)**:** اصدقي رسول الله!

بريرة (تصرخ ألمًا)**:** فيمَ؟ ... فيمَ؟

علي: ما تعلمين عن مولاتك؟

بريرة: والله ما أعلم إلا خيرًا، وما كنتُ أعيب عليها شيئًا، إلا أني كنتُ أعجن عجيني، فأرجو منها أن تحفظه، فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله!

المنظر الخامس

(في مسكن عائشة ... وهي بين أبوَيها تبكي، والنبي مطرق على مقربةٍ منهم.)

محمد (يرفع رأسه)**:** يا «عائشة»! ... إن كنتِ قارفتِ سوءًا مما يقول الناس؛ فتوبي إلى الله يقبل التوبة عن عباده!

عائشة (يقلص دمعها وتنظر إلى أبوَيها لحظة؛ كأنها تنتظر منهما شيئًا)**:** ألا تُجيبان؟!

أبو بكر (في إطراق، وفي صوتٍ خافت)**:** والله ما ندري بماذا نُجيب؟

عائشة (للنبي منفجرة)**:** والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدًا، والله إني لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة؛ لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون لا تصدقونني … ولكن سأقول كما قال «أبو يوسف»: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون!

(تنهمر عبراتها بلا شهيق.)

(محمد يطيل النظر إلى عائشة متفكرًا … وفجأة تأخذه غشية.)

أبو بكر (همسًا، وهو مسرع إليه)**:** الوحي!

(ثم يسجيه بثوبه، ويضع تحت رأسه وسادة.)

عائشة (في دهش)**:** الوحي!

زينب (في رجفة)**:** اللهم عفوك ورضوانك!

عائشة (كالمخاطبة لنفسها)**:** الوحي؟ … من أجلي؟! … وايم الله لأنا أحقر وأصغر شأنًا من أن يُنزل الله فيَّ قرآنًا يُقرَأ ويُصلَّى به في المساجد!

أبو بكر (في رجفة)**:** اللهم رحمتك!

عائشة (في صوتٍ خافت)**:** لماذا تفرقان هذا الفرق؟ … فوالله ما أفزع؛ فإني أعرف أني بريئة وأن الله غير ظالمي!

أبو بكر (وهو لا يحيد عن النبي بنظره)**:** رحماك اللهم!

عائشة: أتخشيان أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس؟

أبو بكر: صه!

زينب (وقد رأت النبي يتحرك)**:** صه!

محمد (يُسرَّى عنه، ويجلس ويمسح العرق عن جبينه)**:** أبشري يا «عائشة»! … فقد أنزل الله براءتك!

عائشة (صائحة)**:** لربي الحمد! … لربي الحمد!

زينب (تتنفس في فرح)**:** الحمد لله!

أبو بكر (رافعًا يديه إلى السماء)**:** لك الحمد اللهم!

محمد (يتلو)**:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾!

المنظر السادس

(في المدينة ... على مقربة من المسجد، الناس تتأهب للرحيل ... أنصاريٌّ ومهاجريٌّ يتحادثان ...)

الأنصاري: ما الخبر؟
المهاجري: رسول الله يخرج إلى «مكة»، يريد زيارة البيت الحرام!
الأنصاري: وهل تتركه قريش يدخل مكة؟
المهاجري: إنه يدخلها معتمرًا، لا يريد حربًا ولا قتالًا!
الأنصاري (يلتفت): انظر ... من هذا الرجل؟
المهاجري: هذا «بشر بن سفيان»، قادمًا ولا ريب من مكة يُفضي إلى النبي بشيء!
الأنصاري (يلتفت): وهذا النبي قد خرج إليه!

(يخرج النبي وقد تهيأ للرحيل ومعه الناس، يتقدَّم بشر إليه، ويسلم عليه.)

بشر: يا رسول الله! ... «هذه قريش» قد سمعَت بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذ المطافيل ... قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بـ «ذي طوًى» يعاهدون الله لا ندخلها عليهم أبدًا، وهذا «خالد بن الوليد» في خيلهم ... قد قدموها إلى كراع الغميم!

محمد: يا ويح قريش! ... لقد أكلَتهم الحرب! ... ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب؛ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتَلوا وبهم قوة، فما تظن «قريش»؟ ... فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة!

بشر: على بركة الله!
محمد (في عزم): على بركة الله! ... أزور بيت الله!
بشر: عسى أن تلين «قريش»؛ إذ تعرف أنك لا تريد حربهم!
محمد (لمن حوله): مَن رجل يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هُم بها؟

المنظر السابع

(«عبد الله بن أُبي» أمام المسجد بالمدينة ومعه أحد الأنصار.)

ابن أُبي: أعُدتم من «مكة»؟

الأنصاري: نعم ... أوَما بلغك خبر الصلح؟

ابن أُبي: الصلح؟

الأنصاري: لقد تم بين رسول الله و«قريش» الصلح!

ابن أُبي: ماذا أسمع؟ ... كيف ذلك؟

الأنصاري: عندما كنا بـ «الحديبية» أسفل «مكة»، بعثَت قريش «سهيل بن عمرو» إلى رسول الله، فكتبا عهدًا أن توضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأنه من أحب أن يدخل في «عقد النبي» وعهده؛ دخل فيه ... ومن أحب أن يدخل في «عقد قريش» وعهدهم؛ دخل فيه!

ابن أُبي: عجبًا!

الأنصاري (يلتفت)**:** ... صه! ... رسول الله!

(عبد الله بن أُبي ينصرف سريعًا، ويأتي النبي ومعه أبو بكر وعمر وعلي.)

عمر: اليوم قد أَمِنَّا شر «قريش»!

أبو بكر: نعم ... إنه لَفتحٌ مبين!

عمر: يا رسول الله! ... الآن قد ثبت دينك وأقر به الجاحدون ...

محمد: لله الحمد ... «إن الله قد بعثني رحمةً وكافة»!

أبو بكر: لا للعرب وحدهم، إنما للعرب والعجم وخلق الله كافة!

محمد: صدقتَ يا «أبا بكر» إن الله أرسلَني إلى «هرقل» و«كسرى» و«المقوقس» و«نجاشي الحبشة»! ... أدعوهم إلى الإسلام!

أبو بكر: فلنوجه إليهم يا رسول الله من يحمل إليهم كتبًا تدعوهم إلى الإسلام!

محمد: نعم! ... أريد أن أوجه «دحية بن خليفة الكلبي» إلى «هرقل»، و«عبد الله بن حذافة» إلى «كسرى»، و«حاطب بن أبي بلتعة» إلى «المقوقس»، و«عمرو بن أمية الضمري» إلى «النجاشي».

علي: أنأتي بهم إليك يا رسول الله؟

محمد: نعم!

(علي ينصرف مسرعًا مع بعض الناس.)

عمر: لي يا رسول الله رأي!

محمد: قل لي «أبا حفص»!

عمر: إن اليهود ما برحَت لهم شوكة في «خيبر»، وإني لأخشى أن يؤلبهم علينا «الفُرس» أو «الروم»، أو يُنهضهم الثأر لـ «بني قريظة»!

محمد (يفكر قليلًا): أصبتَ!

عمر: لا بد لنا من غزو «خيبر»!

محمد (في عزم): نعم ... تجهزوا لغزو «خيبر»!

المنظر الثامن

(في خيبر ... النبي بين أصحابه متهلل الوجه.)

محمد: الله أكبر! ... خربَت «خيبر»!

علي: نعم ... ما بقي حصن إلا فُتِح!

(يتقدم دحية، وهو أحد المقاتلين.)

دحية: يا رسول الله! ... لقد وقعَت «صفية» في سهمي، وهي جاريةٌ جميلة!

محمد: لقد اشتريتُها منك بسبعة أرؤس!

دحية: قبلتُ يا رسول الله!

محمد: ادفعها إلى «أم سليم» تُصنِّعها وتُهيِّئها!

دحية (منصرفًا هامسًا): أين «أم سليم»؟

أحد الناس (همسًا): مع ظعينة رسول الله!

(يدنو أحد الأنصار من دحية ويسأله ...)

الأنصاري (همسًا): «صفية» سيتزوجها رسول الله؛ أم يتخذها أمَّ ولد؟

دحية: ما أدري! ... إن حجَبها فهي امرأته، وإن لم يحجُبْها فهي أمُّ ولد!

(يذهب.)

(تدنو من الأنصاري امرأةٌ يهودية ومعها شاة مشوية.)

اليهودية: أين محمد؟

الأنصاري: لماذا تسألين عنه أيتها المرأة؟

اليهودية: معي شاةٌ مشوية أحب أن أهديها إليه!

الأنصاري: هو هذا الجالس بين أصحابه!

اليهودية: أي الشاة أحب إليه؟

الأنصاري: الذراع!

(اليهودية تترك الأنصاري، وتخرج من ثوبها شيئًا تضعه في الشاة، وتكثر منه في الذراع.)

محمد (يرى المرأة بقربه): من المرأة؟

اليهودية (تقدم الشاة): يا «أبا القاسم»! ... هدية أهديتُها لك!

محمد: جزاك الله خيرًا، خذوها منها!

(يتناولها منها بشر بن البراء أحد الحاضرين، وتنصرف المرأة وتقف عن كثب تنظر إليه.)

بشر (في نهم): إنها شاةٌ مَصلية!

محمد (لأصحابه): ادنوا فتعشوا!

بشر: إنك تحب الذراع يا رسول الله!

محمد: نعم ... ناولْني الذراع!

(بشر يناول النبي الذراع، فينتهش منها، ويأخذ بشر عظمًا آخر ينتهش منه.)

(بشر يقف قليلًا دون أن يزدرد، وينظر إلى النبي.)

محمد (يقف فجأة عن النهش): ارفعوا أيديكم، فإن ذراع الشاة تخبرني أنها مسمومة!

الجميع (في فزع): مسمومة؟!

بشر (للنبي): والذي أكرمك، لقد وجدتُ ذلك من أكلتي التي أكلتُ حين التقمتُها، فما منعني أن ألفظها إلا أني كرهتُ أن أبغِّض إليك طعامك، فلما أكلتَ ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوتُ ألَّا تكون ازدردتَها وفيها بغْي!

علي (لأحد الحاضرين)**:** اطرحوا منها لكلب!

(يطرحون منها لكلبٍ مارٍّ فيموت في الحال!)

عمر: إنه لم يتبع يده حتى مات!

علي: انظروا! ... لقد عاد لون «بشر» كالطيلسان!

محمد (صائمًا)**:** ائتوه بحجَّام!

أبو بكر: أرى والله أن تحتجم يا رسول الله!

محمد: نعم ... أريد أن أحتجم على كاهلي!

أبو بكر (لمن حوله)**:** أسرعوا في طلب الحجام!

محمد: أين هذه المرأة؟

الأنصاري (وقد قبض عليها)**:** ها هي ذي يا رسول الله!

محمد (للمرأة)**:** ما حملكِ على ما صنعتِ؟

اليهودية: إنك نلتَ من قومي ما نلتَ؛ قتلتَ أبي وعمي وزوجي، فقلتُ إن كان نبيًّا لم يضْرُره، وإن كان كاذبًا أرحتُ الناس منه!

محمد (لمن حوله)**:** اقتلوا هذه المرأة!

المنظر التاسع

(في مكة ... عمرو بن العاص في أصحابٍ له من قريش.)

عمرو: تعلمون، و«اللات» أني أرى أمر «محمد» يعلو الأمور علوًّا منكَرًا ... وإني قد رأيتُ أمرًا، فما ترَون فيه؟

قريش: ماذا رأيتَ؟

عمرو: رأيتُ أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر «محمد» على قومنا كنا عند «النجاشي» ... فإنا أن نكون تحت يدَيه أحب إلينا من أن نكون تحت يدَي «محمد» ... وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا؛ فلن يأتينا منهم إلا خير!

قريش: إن هذا لرأي!

عمرو: اجمعوا لنا إذَن ما نُهديه إلى «النجاشي»!

المنظر العاشر

(عند النجاشي وبين يديه رسول محمد، وهو عمرو بن أمية الضمري.)

الضمري: يا «أصحمة»! ... إن عليَّ القول وعليك الاستماع ... إنك كأنك في الرقة علينا منا؛ وكأنا بالثقة بك منك؛ لأنا لم نظن بك خيرًا قط إلا نلناه، ولم نخفْك على شيء قط إلا أمِنَّاه ... وقد أخذْنا الحجة عليك من فيك، ألَّا يحيل بيننا وبينك شاهد لا يُرَد وقاض لا يجور، وفي ذلك وقْع الحزِّ وإصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في «عيسى ابن مريم»، وقد فرَّق النبي رسُله إلى الناس، فرجاك لِما لم يرجهم له، وأمِنك على ما خافهم عليه، لخيرٍ سالف وأجرٍ يُنتظَر!

النجاشي: أشهد بالله إنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة «موسى» براكب الحمار؛ كبشارة «عيسى» براكب الجمل، وإن العيان له ليس بأشفى من الخبر عنه ... ولكن أعواني من الحبش قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان وأليِّن القلوب!

(يدخل عمرو بن العاص وأصحابه، فيلمح الضمري.)

عمرو بن العاص (لأصحابه هامسًا)**:** أتدرون من هذا بين يدَي «النجاشي»؟ ... هذا «عمرو بن أمية الضمري» رسول «محمد»، لو قد دخلتُ على «النجاشي» لسألته إياه، فأعطانيه، فضربتُ عنقه؛ فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أني أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول «محمد» ... ها هو ذا قد ودَّع «النجاشي» وخرج ... هلمُّوا بنا!

(يتقدم إلى النجاشي ويسجد له.)

النجاشي: مرحبًا بصديقي!
عمرو: أيها الملك!
النجاشي: أهديتَ إليَّ من بلادك شيئًا؟
عمرو: نعم أيها الملك! ... قد أهديتُ إليك أُدمًا كثيرًا!

(يقرِّب إليه الهدية.)

النجاشي (ينظر إليها معجبًا)**:** مرحى! ... مرحى! ... وشكرًا شكرًا!

عمرو: أيها الملك! ... إني قد رأيتُ رجلًا خرج من عندك، وهو رسول رجلٍ عدو لنا ... فأعطنيه لأقتله؛ فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا!

(النجاشي يغضب ويمد يده، فيضرب بها أنفه ضربةً شديدة.)

عمرو (في فرق)**:** أيها الملك! ... واللات لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتُكه!

النجاشي: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه «الناموس الأكبر» الذي كان يأتي «موسى» لتقتله؟!

عمرو: أيها الملك! ... أكذاك هو؟!

النجاشي: ويحك يا عمرو! ... أطعْني واتبعه؛ فإنه والله لعلى الحق، ولَيظهرن على من خالفه كما ظهر «موسى» على «فرعون» وجنوده!

عمرو: أفتبايعني له على الإسلام؟

النجاشي: نعم!

(يبسط يده فيبايعه عمرو.)

المنظر الحادي عشر

(في الطريق إلى المدينة ... عمرو بن العاص يقابل خالد بن الوليد.)

عمرو بن العاص (لخالد)**:** أين «يا أبا سليمان»؟

خالد بن الوليد: والله لقد استقام الميسم، وإن الرجل لنبي ... أذهب والله فأسلم ... فحتى متى؟

عمرو: أنت أيضًا؟!

خالد: نعم!

عمرو: والله ما جئتُ أنا كذلك إلا لأسلم!

خالد: هلمَّ بنا!

(يسيران في طريق المدينة.)

المنظر الثاني عشر

(في المدينة ... النبي في المسجد.)

عمر: يا رسول الله! ... لقد عاد من أرسلْناهم إلى الملوك من الرسل!

محمد: أدخلهم!

(يدخل الرسل وهم: دحية بن خليفة، وعمرو بن أمية، وعبد الله بن حذافة، وحاطب بن أبي بلتعة.)

عمر (لهم)**:** لقد أَذِن لكم رسول الله!

محمد (لدحية بن خليفة)**:** ما وراءك يا «دحية»!

دحية: لقد وجهتَني يا رسول الله إلى «قيصر الروم»، فرد عليك بهذا الكتاب!

محمد: اقرأه!

دحية (يفتح الكتاب ويقرأ)**:** «... إلى محمد رسول الله! ... إني مسلم ولكني مغلوب على أمري ...»

محمد: كذَب عدو الله! ... ليس بمسلم؛ بل هو على نصرانيته! ... (يلتفت إلى عمرو بن أمية) وأنت يا «عمرو» ما وراءك؟

ابن أمية: توجهتُ إلى «نجاشي الحبشة» فأجاب أنه يشهد بالله أنك النبي الآتي الذي ينتظره أهل الكتاب، ولكن أعوانه من الحبش قليل، وطلب أن تُنظره؛ حتى يُكثر الأعوان، ويليِّن القلوب!

محمد (يلتفت إلى عبد الله بن حذافة)**:** وأنت يا «عبد الله»؟

عبد الله: توجَّهتُ إلى «كسرى»، وقدمتُ له كتابك، فأخذ الكتاب فمزَّقه!

محمد: مزَّق الله ملكه!

عبد الله: ثم أجاب: «مُلكٌ هنيء لا أخشى أن أُغلَب عليه، ولا أُشارَك فيه، وقد ملك فرعون بني إسرائيل ولستم بخيرٍ منهم؛ فما يمنعني أن أملككم وأنا خير منه، فأما هذا المُلك فقد علمْنا أنه يصير إلى الكلاب، وأنتم أولئك؛ تشبع بطونكم وتأبى عيونكم!»

محمد (يلتفت إلى حاطب بن أبي بلتعة)**:** وأنت يا «حاطب» ما وراءك؟

حاطب: قدمتُ على المقوقس فأجابني: «إني قد نظرتُ في أمر هذا «النبي» فوجدتُه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى إلا عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب ... وسأنظر.» ثم أهدى إليك يا رسول الله «جاريةً قبطية» جميلة اسمها «مارية»!

المنظر الثالث عشر

(في المدينة ... النبي وأبو بكر في المسجد، بين نفر من الخزرج، وهم: عبد الله بن أنيس، ومسعود بن سنان، وابن عتيك، وأبو قتادة وخزاعي.)

عبد الله: يا «رسول الله»! ... لقد أصابت «الأوس» عدو الله اليهودي «كعب بن الأشرف»!

محمد: متى؟

مسعود: اليوم!

محمد: وكيف أصابوه؟

عبد الله: قتلوه بأسيافهم، ووالله لا يذهبون بهذه فضلًا علينا عندك في الإسلام، ولن ننتهي حتى نوقع مثلها، فأْذن لنا في قتل اليهودي «ابن أبي الحقيق» وهو بخيبر!

أبو بكر (لمحمدٍ باسمًا)**:** إن هذين الحيَّين من الأنصار «الأوس» و«الخزرج»، ليتصاوَلان تصاوُل الفحلَين، لا تصنع «الأوس» شيئًا فيه غناء، إلا صنعَت «الخزرج» مثلهم!

عبد الله: نعم ... وإنا لنستأذن رسول الله في أن نصنع مثل ما صنعَت «الأوس»!

محمد (باسمًا)**:** قد أذنتُ لكم!

الخزرج (صائحين فرحًا)**:** الله أكبر!

محمد: ولكني أنهاكم أن تقتلوا وليدًا أو امرأة!

(يخرج رجال الخزرج.)

بلال (يدخل فرحًا)**:** يا نبي الله!

أبو بكر: ما لك يا «بلال»؟

بلال (في فرح)**:** لقد جاء «خالد بن الوليد» و«عمرو بن العاص» كي يسلما!

محمد (مبتهجًا)**:** أدخلْهما!

(يدخل خالد وعمرو.)

خالد: يا رسول الله! ... لقد تبين لي الحق من الباطل، وعلمتُ أنك رسول الله، وإني أبايعك على الإسلام!

محمد (فرحًا)**:** الله أكبر! ... الله أكبر!

عمرو (يتقدم)**:** يا رسول الله! ... وأنا أبايعك على أنْ ...

أبو بكر (لا يتمالك)**:** على أنْ ماذا؟

عمرو: على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر!

محمد: يا «عمرو» بايع؛ فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله، والهجرة تجبُّ ما كان قبلها!

المنظر الرابع عشر

(محمد أمام المسجد مع أبي بكر يقبِل عليه نفر من الخزرج مهللين ...)

عبد الله (في فرح)**:** الله أكبر!

محمد: ما وراءكم؟

مسعود: قتلْنا عدو الله ابن أبي الحقيق!

محمد: كيف؟

ابن عتيك: خرجْنا حتى إذا قدمْنا «خيبر» قمْنا على باب «ابن أبي الحقيق» ليلًا فأستاذنَّا عليه، فخرجَت إلينا امرأته، فقالت: من أنتم؟ ... قلنا: ناس من العرب نلتمس الميرة! ... قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه. وأغلقْنا علينا وعليها الحجرة؛ تخوفًا أن تكون دونه محاولة تحول بيننا وبينه، وصاحت امرأته؛ فنوهَت بنا، وابتدرْناه وهو على فراشه بأسيافنا، فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه؛ كأنه قبطية ملقاة، ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهي رسول الله ألا نقتل امرأة فيكف يده، ولولا ذلك لفرغْنا منها!

عبد الله (متممًا)**:** ولَمَّا ضربْناه بأسيافنا، تحاملتُ عليه بسيفي في بطنه، حتى أنفذتُه وهو يقول: «حسبي! ... حسبي!» وخرجْنا، فوقع «ابن عتيك» لسوء بصره من الدرجة، فوثئَت رجله وثأً شديدًا فحملْناه!

ابن عتيك: نعم ... وأوقد «يهود» النيران، واشتدوا في كل وجه يطلبوننا، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضي بينهم، فقلنا: كيف لنا بأن نعلم أن عدو الله قد مات؟! ... فقال «خزاعي»: أنا أذهب فأنظر لكم. فانطلَق ...

خزاعي: انطلقتُ حتى دخلتُ في الناس، فوجدتُ امرأته، ورجال «يهود» حوله وفي يدها المصباح، تنظر في وجهه، وتقول: «فاظ وإله «يهود»!» فما سمعتُ من كلمة كانت ألذ إلى نفسي منها!

أبو قتادة: ثم جاءنا فأخبرَنا الخبر.

أبو بكر (باسمًا)**:** ومن منكم قتله؟

ابن عتيك: أنا!

عبد الله: بل ضربَتي أنا!

خزاعي: إن أردتم الحقيقة فأنا الذي ...

محمد: هاتوا أسيافكم!

الخزرج (يسرع كلٌّ إلى سيفه ويقدِّمه إلى النبي)**:** ها هي ذي!

محمد (ينظر إلى السيوف، ويشير إلى أحدها)**:** لمن هذا السيف؟

الخزرج: لـ «عبد الله بن أنيس»!

محمد (يشير إلى سيف عبد الله)**:** هذا قتَله، أرى فيه أثر الطعام!

المنظر الخامس عشر

(النبي في حي بالمدينة بين رهط من الناس.)

أبو رافع (يأتي وهو يجري ويلهث)**:** يا رسول الله! ... أبشر! ... أبشر!

محمد: بماذا؟

أبو رافع: ولدَت لك «مارية القبطية» الليلة غلامًا!

محمد (في فرح)**:** وُلِد لي غلام!

أبو رافع: نعم ... وربِّك قد وُلِد لك غلام!

محمد (فرحًا)**:** يا «أبا رافع»! ... لقد وهبتُ لك عبدًا!

أبو رافع (صائحًا يجري في الناس)**:** أبشروا أيها الناس! ... أبشروا!

محمد (ينهض)**:** أيها الناس! ... وُلِد لي الليلة غلام! ... وإني سمَّيتُه ... باسم أبي «إبراهيم»!

(يذهب مسرعًا، ومعه أبو رافع.)

المنظر السادس عشر

(عائشة في مسكنها مع أمها زينب أم رومان.)

أم رومان: لا تحزني يا بنيتي!

عائشة: وددتُ والله أني أنا أمُّ هذا الغلام!

أم رومان: عسى أن تُرزَقي غلامًا مثله!

عائشة: أما علمتِ؟

أم رومان: ماذا؟

عائشة: لقد حجب رسول الله «مارية»!

أم رومان: نعم ... إنها قد ثقلَت على نسائه!

عائشة (كالمخاطبة لنفسها)**:** قد عق عنه رسول الله بكبشَين يوم سابعه، وحلق رأسه، فتصدق بزِنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدُفِن في الأرض ... وتنافسَت فيه نساء الأنصار؛ أيتهن ترضعه!

بريرة (تدخل)**:** رسول الله جاء!

(تخرج أم رومان وتترك عائشة.)

محمد (يدخل فرحًا، حاملًا ابنه إبراهيم بين ذراعيه)**:** يا «عائشة»! ... انظري! ... انظري!

عائشة (ترفع رأسها في فتور)**:** ماذا؟

محمد (ينظر إلى الغلام بين ذراعيه)**:** انظري إلى شبهه بي!

عائشة: ما أرى شبهًا!

محمد: ألا ترَين إلى بياضه ولحمه؟!

عائشة: من سُقِي ألبان الضأن سَمِن وابيضَّ!

محمد (ينظر إلى الغلام)**:** أما درَيتِ يا «عائشة»؟ ... لقد جاء إليَّ «جبريل» فقال: السلام عليك يا «أبا إبراهيم»!

عائشة (فاترة)**:** حقًّا؟

محمد: ألا يسرك هذا؟

عائشة: ما الذي جاء بك الساعة يا رسول الله؟!

محمد: جئتُ لكِ بـ «إبراهيم»؛ كي تنظري إليه!

عائشة (مطرقة)**:** قد نظرتُ إليه!

محمد (يلتفت إليها)**:** ما لكِ يا «عائشة»؟

عائشة: ما بي من شيء!

محمد (ينظر إليها مليًّا)**:** أغِرتِ!

عائشة (مطرقة)**:** كلَّا!

محمد: إنكِ والله قد غِرتِ!

عائشة (ترفع رأسها صائحة)**:** وما لي لا يغار مثلي على مثلك!

محمد (يبتسم)**:** أوَقد جاءك شيطانك؟

(صمتٌ عميق ... تهدأ عائشة قليلًا.)

عائشة: أمعي شيطان؟

محمد: نعم!

عائشة: ومع كل إنسان؟

محمد: نعم!

عائشة: ومعك يا رسول الله؟

محمد: نعم! ... ولكن ربي أعانني!

المنظر السابع عشر

(عائشة في مسكنها ... تدخل عليها بريرة تجري.)

بريرة (وهي تلهث)**:** أجاءك الخبر؟

عائشة: أي خبر؟

بريرة: مات «إبراهيم»!

عائشة (في فرح ظاهر)**:** غلام «القبطية»؟!

بريرة: نعم! ... نعم!

عائشة (تنهض وثبًا)**:** من أين عرفتِ ذلك؟

بريرة: الناس تتحدث به، ونساء النبي قد ذهبن يحضرن دفنه!

عائشة: عليَّ بإزاري!
بريرة: أين؟
عائشة: أذهب لأرى هذا الأمر!

المنظر الثامن عشر

(النبي في البقيع، ومعه الفضل بن عباس، وأسامة بن زيد، يحملان جثة إبراهيم وخلفهم مارية تبكي، ونساء من الأنصار والمهاجرين، وحفَّار يحفر قبرًا.)

الفضل: أندفنه هنا في «البقيع»؟
محمد (مطرقًا)**:** نعم!
أسامة (قرب الحفرة)**:** ادنُ يا «ابن عباس»! ... هذا الحفار قد فرغ!
الفضل (يدلي بالجثة في الحفرة)**:** في جنة الخلد يا «إبراهيم»!
النساء (صائحات)**:** إن له إن شاء الله مرضعًا في الجنة!
محمد (على شفير القبر)**:** أرى فرجة في اللحد!
الحفار: إنها يا رسول الله لا تضر ولا تنفع!
محمد (يسوي بإصبعه الجدث)**:** أمَا إنها لا تضر ولا تنفع، ولكن تقر بعين الحي، إن العبد إذا عمل عملًا أحب الله أن يتقنه!
النساء (ينظرن إلى السماء صائحات)**:** انظروا! ... انظروا!
محمد (يلتفت)**:** ماذا؟
النساء: انكسفَت الشمس!
أسامة (ناظرًا إلى السماء)**:** إي والله! ... انكسفَت الشمس لموت «إبراهيم»!
النساء (صائحات)**:** لموت «إبراهيم» انكسفَت الشمس! ... انكسفَت الشمس لموت «إبراهيم»!
محمد (ينهض ويلتفت إلى الناس)**:** أيها الناس! ... إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، ولا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد!

(يسكت الناس لحظة، ويعود النبي إلى إطراقه.)

الفضل (ناظرًا إلى التراب وقد أُهِيل على إبراهيم)**:** رحمة الله على إبراهيم! ... لو عاش كان صدِّيقًا نبيًّا!

محمد (للحفار): أقد فرغتَ؟

الحفار: نعم!

محمد: مَن أحد يأتي بقربة ماء؟

أسامة (يُسرع إلى قربة، فيحملها ويجيء بها إلى النبي): هذي قربة الماء يا رسول الله!

محمد: رُشَّها على قبر «إبراهيم»!

أسامة (يرش الماء على القبر): استودعناك الله يا «إبراهيم»!

محمد (لا يملك نفسه): لو عاش «إبراهيم» لوضعتُ الجزية عن كل قبطي!

(تسيل من عينَي النبي الدموع.)

أسامة: أتبكي، وقد نهَيتَ عن البكاء؟!

محمد (باكيًا): إن «إبراهيم» ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرَين تُكملان رضاعه في الجنة!

الفضل: يا رسول الله تبكي وأنت رسول الله؟!

محمد: إنما أنا بشر، تدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إن شاء الله إلا ما يُرضِي الرب، والله لولا أنه أجلٌ معدود، ووعدٌ صادق، ووقتٌ معلوم، وأن آخرنا لاحِق بأولنا، لجزعْنا عليه جزعًا غير هذا … إنا عليك يا «إبراهيم» لمحزونون!

المنظر التاسع عشر

(النبي بين أصحابه في المدينة أمام المسجد.)

بلال (يتقدم بين يدَي النبي): يا رسول الله! … لقد نقضَت «قريش» صُلح «الحديبية»!

(النبي يطرق مفكرًا.)

عمر: ما تقول يا «بلال»؟

بلال: رجال من «خزاعة» قدموا بهذا الخبر!

علي: ولَّما يمضِ على الصلح اثنان وعشرون شهرًا!

أبو بكر (يلتفت): نعم! … هذا «عمرو بن سالم الخزاعي» في رجال من «خزاعة»!

(النبي يرفع رأسه ناظرًا إلى رجال خزاعة.)

الخزاعي (يتقدم بين يدَي النبي)**:** يا رسول الله! ... بعد أن دخلْنا في عقدك وعهدك عدَت علينا «قريش» ليلًا، ونحن آمِنون، فقتلوا منا عشرين رجلًا، فقدمْنا عليك نخبرك ونستنصرك!

محمد (يقوم يجر رداءه)**:** لا نُصِرتُ إن لم أنصرْكم مما أنصرُ منه نفسي!

الخزاعي: لقد بلغَنا أن قريشًا رهبوا الذي صنعوا؛ وندموا عليه!

بلال (ينظر)**:** هذا رجل ك «أبي سفيان» مقبلًا مسرعًا!

أبو بكر (ينظر مليًّا)**:** نعم ... هو «أبو سفيان»!

محمد (يقف)**:** كأني به قد جاء ليشد العقد، ويزيد في المدة!

أبو سفيان (يتقدم إلى النبي)**:** يا «أبا القاسم»! ... إني جئتك في أمر!

(محمد لا يرد عليه شيئًا.)

أبو سفيان: جئتُ للعهد الذي بيننا وبينك!

(محمد لا يجيب.)

أبو سفيان (يمضي في القول)**:** ألك في أن نشد العقد، ونزيد في المدة؟

محمد (في صوتٍ خافت كالمخاطب لنفسه)**:** هيهات! ... هيهات!

(يترك أبا سفيان وينصرف.)

أبو سفيان (لمن حوله)**:** لماذا لا يرد عليَّ شيئًا؟ ... يا «أبا بكر» ... كلم لي «أبا القاسم» أن يستمع إليَّ!

أبو بكر (يتركه ويمشي في أثر النبي)**:** ما أنا بفاعل!

أبو سفيان (يتجه إلى عمر بن الخطاب)**:** وأنت يا «أبا حفص»! ... ألا تكلمه لي؟

عمر (يزوَرُّ عنه)**:** أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ ... فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتُكم به!

(يتركه ويتبع النبي.)

أبو سفيان (لعلي بن أبي طالب)**:** يا «علي»! ... إنك أمسُّ القوم بي رحمًا ... وإني قد جئتُ في حاجة فلا أرجعن كما جئتُ خائبًا فاشفع لي إلى «أبي القاسم»!

علي: ويحك يا «أبا سفيان»! ... والله لقد عزم رسول الله على أمرٍ ما نستطيع أن نكلمه فيه!

أبو سفيان (لعلي)**:** يا «أبا الحسن» إني أرى الأمور اشتدَّت عليَّ فانصحني!

علي: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك شيئًا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجِر بين الناس، ثم الحق بأرضك!

أبو سفيان: أوَترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟

علي: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك!

(يتركه ويذهب كي يلحق بالنبي.)

أبو سفيان (يقف وسط الناس)**:** أيها الناس! ... إني قد أجرتُ بين الناس!

الناس (هازئين)**:** اركب بعيرك وانطلق!

أبو سفيان: صدقتم! ... هذا أولى بي!

(يركب بعيره وينطلق.)

بلال (يأتي مسرعًا من جوار النبي)**:** أيها الناس! ... إن رسول الله يأمركم أن تتجهزوا للقتال!

المنظر العشرون

(في مكة أبو سفيان في رجال من قريش ليلًا.)

قريش (لأبي سفيان)**:** ما وراءك؟

أبو سفيان: جئتُ «محمدًا» فكلمتُه، فواللات ما رد عليَّ شيئًا ثم جئتُ «أبا بكر» فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئتُ «عمر بن الخطاب» فوجدتُه أعدى العدو، ثم أتيتُ «عليًّا» فوجدتُه ألَيَن القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعتُه، فواللات ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا؟!

قريش: وبمَ أشار عليك؟

أبو سفيان: أمرني أن أجير بين الناس ... ففعلتُ!

قريش: وهل أجاز ذلك «محمد»؟

أبو سفيان: لا!

قريش: ويلك! ... واللات ما زاد الرجل على أن لعب بك ... فما يغني عنك ما قلتَ!

أبو سفيان: لا واللات ما وجدتُ غير ذلك!

(يأتي أحد رجال قريش، وهو «بديل بن ورقاء» يجري.)

بديل: يا معشر قريش! ... العسكر! ... العسكر!

قريش (تقوم)**:** أين؟

بديل (يشير إلى ضوءٍ منبثق عن بعد)**:** انظروا تلك النيران!

قريش (في دهش وخوف)**:** نعم! ... نعم!

أبو سفيان (ينظر إلى النيران)**:** نعم ... ما رأيتُ كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا!

بديل: هذه واللات «خزاعة» حمشَتها الحرب!

أبو سفيان (ناظرًا إلى النيران)**:** «خزاعة» أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها!

(يمر العباس بن عبد المطلب على ظهر بغلة النبي البيضاء.)

العباس (صائحًا بأبي سفيان)**:** ... يا «أبا حنظلة»!

أبو سفيان (يلتفت)**:** «أبو الفضل»؟!

العباس: نعم!

أبو سفيان: ما لك ... فداك أبي وأمي!

العباس: ويحك يا «أبا سفيان» ... هذا رسول الله في الناس!

أبو سفيان (مرتاعًا)**:** «محمد»؟!

العباس: نعم ... وا صباح «قريش»! ... والله لئن دخل مكة، عنوة قبل أن تأتوه فتستأمنوه؛ إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر!

أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟!

العباس: والله لئن ظفر بك ليضربَن عنقك ... فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك!

أبو سفيان: نعم! ... هلمَّ بنا!

(يركب في الحال خلف العباس.)

المنظر الحادي والعشرون

(في معسكر النبي ... العباس يمر بين المسلمين على البغلة، في طريقه إلى النبي وخلفه أبو سفيان.)

المسلمون (صائحين): من هذا؟
العباس: أنا!
المسلمون: عم رسول الله على بغلته؟
أبو سفيان (قلقًا): خشيتُ أن يكونوا قد أُمِروا فيَّ بشيء!
العباس: لا تخشَ شيئًا!
عمر (يلمح أبا سفيان): من هذا!
العباس: أنا!
عمر (صائحًا): «أبو سفيان» على عجز الدابة! ... «أبو سفيان» عدو الله! ... الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد!
العباس (يركض بالبغلة): فلنسبقه إلى رسول الله!
أبو سفيان (ينظر خلفه في قلق): إنه يشتدُّ خلفنا!
العباس: إن سبقَنا إلى رسول الله فأنت هالك!
أبو سفيان: أسرع بنا فداك أبي وأمي!
العباس (يوقف البغلة أمام مضرب النبي): قد بلغْنا المكان! ... هذا رسول الله!

(ينزلان ويتقدمان نحو النبي، وهو جالس أمام مضربه.)

أبو سفيان (همسًا للعباس): كلمْه لي أول الأمر!
العباس (يتقدم): يا رسول الله!
عمر (يصل مسرعًا، وهو يصيح): يا رسول الله ... هذا «أبو سفيان» قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد! ... فدعني فلأضرب عنقه!
العباس: يا رسول الله! ... إني قد أجرتُه!

عمر: يا رسول الله! ... مُرني أتكلمْ!

العباس (يجلس إلى النبي، ويأخذ برأسه، ويلتفت إلى عمر)**:** والله لا يناجيه الليلة دوني رجل!

عمر: إن «أبا سفيان» عدو الله!

العباس: مهلًا يا «عمر»! ... فوالله أن لو كان من رجال «بني عدي بن كعب» ما قلتَ هذا ... ولكنك قد عرفتَ أنه من رجال «بني عبد مناف»!

عمر (يهدأ ويتلطف)**:** مهلًا يا «عباس»! ... فوالله لَإسلامُك يوم أسلمتَ كان أحب إليَّ من إسلام «الخطاب» لو أسلم، وما بي إلا أني عرفتُ أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام «الخطاب» لو أسلم!

أبو سفيان (للعباس خافتًا في قلق)**:** كلمْ لي ابن أخيك!

محمد (يلتفت إلى أبي سفيان)**:** «أبا سفيان»!

أبو سفيان: نعم يا «أبا القاسم»!

محمد: ويحك! ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ... ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك! ... والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره؛ لقد أغنى عني شيئًا بعد!

محمد: ويحك يا «أبا سفيان»! ... ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟

أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك! ... أمَّا هذه والله، فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا!

العباس (يغمزه بيده)**:** ويحك! ... أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن يُضرَب عنقك!

أبو سفيان: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

العباس: يا رسول الله! ... إن «أبا سفيان» رجل يحب هذا الفخر؛ فاجعل له شيئًا!

محمد: نعم ... من دخل دار «أبي سفيان» فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن!

أبو سفيان (للنبي وهو منصرف مع العباس)**:** إنك والله لكريم!

محمد (همسًا للعباس)**:** يا «عباس» احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل؛ حتى تمر به جنود الله فيراها!

المنظر الثاني والعشرون

(بمضيق الوادي عند خطم الجبل ... النبي مارٌّ في جيشه، العباس وأبو سفيان في ناحية ينظران إلى الجنود تمرُّ بهما.)

العباس: انظر إلى جنود الله!

أبو سفيان (مأخوذًا)**:** نعم! ... نعم! ... ما هذه القبائل كلها!

العباس (يشير إلى قبيلةٍ مارة)**:** هذه «سُليم»!

أبو سفيان: نعم ... نعم ... ومن هؤلاء؟

العباس: هؤلاء «مزَينة»!

أبو سفيان: نعم ... نعم!

العباس: وهؤلاء قبائل «أسلم» و«غِفار» و«جهينة»!

أبو سفيان: نعم ... نعم!

العباس: انظر إلى القبائل تمرُّ على راياتها!

أبو سفيان (في صيحة)**:** سبحان الله يا «عباس»! ... من هؤلاء؟!

العباس: هذا «رسول الله» في كتيبته الخضراء!

أبو سفيان (في إعجاب)**:** الكتيبة الخضراء؟!

العباس: نعم المهاجرون والأنصار!

أبو سفيان: يا لكثرة الحديد في هذه الكتيبة! ... لا يُرى والله منهم إلا الحدق من الدروع والحديد!

العباس: نعم!

أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا «أبا الفضل» لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا!

العباس: يا «أبا سفيان»، إنها النبوة!

أبو سفيان: فنَعم إذَن!

العباس (يدفعه)**:** يا «أبا سفيان»! ... النجاء إلى قومك!

أبو سفيان: صدقتَ!

(ينصرف إلى قومه.)

العباس: أسرع!

المنظر الثالث والعشرون

(في مكة ... الناس مجتمعون، أبو سفيان بينهم يخطبهم.)

أبو سفيان (يصرخ بأعلى صوته)**:** يا معشر «قريش»! ... هذا «محمد» قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار «أبي سفيان» فهو آمن!

(تقوم إليه هند بنت عتبة غاضبة ثائرة من بين الناس.)

هند: أأنت تقول هذا؟

أبو سفيان: نعم ... أقول هذا فاستمعوا إليَّ!

هند (تأخذ بشارب أبي سفيان وتصيح)**:** اقتلوا الحميت الدسم الأحمس! ... قُبِّح من طليعة قوم!

أبو سفيان: اغربي أيتها المرأة!

هند (للناس)**:** لا تصغوا إلى هذا الرجل!

أبو سفيان (للناس)**:** ويلكم! ... لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار «أبي سفيان» فهو آمن!

الناس: قاتلك الله! ... وما تغني عنا دارك؟

أبو سفيان (يمضي في الكلام)**:** ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن!

الناس (يرون الجيش مقبلًا، فيتفرقون مسرعين متصايحين)**:** الجيش! ... الجيش! ... محمد! ... النجاء! ... إلى المسجد! ... إلى دوركم!

(يدخل النبي وجيشه ظافرين.)

عمر (صائحًا في أمراء الجيش)**:** يا أمراء الجيش! ... لقد أمر رسول الله، إذا دخلتم مكة، ألا تقاتلوا إلا مَن قاتَلكم!

محمد (على دابته ناظرًا إلى السماء)**:** لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده!

(يخفض رأسه ويسير في طريق الكعبة.)

أبو سفيان (يلمح العباس)**:** يا «أبا الفضل»!

العباس (يدنو منه): انظر إلى النبي! ... إنه يضع رأسه تواضُعًا لله؛ لِما أكرمه به من الفتح حتى إن عُثْنونه يكاد يمس واسطة الرحل!

أبو سفيان (ناظرًا إلى النبي): نعم!

العباس: اللهم لك الحمد! ... فُتِحَت «مكة» بغير قتال!

أبو سفيان: لقد بلغ النبي «الكعبة»!

العباس (يتبع ببصره النبي): نعم!

أبو سفيان: إنه قد رفع يده، وأمر في الكعبة بشيء!

العباس (يرى محمدًا على وشك الكلام): إنه يشير إلى الأصنام!

أبو سفيان: نعم ... صه! ... إنه يتكلم!

محمد (صائحًا): جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا!

عمر (لرجاله): حطِّموا هذه الأحجار!

(المسلمون يحطمون أصنام الكعبة.)

(ابن رواحة الشاعر يقف إلى جوار النبي، ويصيح في حماسة.)

خلُّوا بني الكفار عن سبيلِهِ　　اليوم نضربكم على تنزيلِهِ
ضربًا يُزيل الهام عن مَقِيلِهِ　　ويذهل الخليل عن خليلِهِ

عمر: يا «ابن رواحة»! ... أبينَ يدَي رسول الله، وفي حرم الله تقول الشعر؟!

محمد: خلِّ عنه يا «عمر»! ... فلَهِي فيهم أسرع من نضْح النبل!

أبو بكر (للنبي في فرح وتأثر): يا رسول الله! ... لقد تم نصر الله لك، ولِما جئتَ به!

محمد (يتلو): ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

الخاتمة

المنظر الأول

(في المدينة ... عائشة على فراشها في مسكنها.)

زينب (تدخل على ابنتها)**:** أتعلمين الخبر؟
عائشة: نعم ... رسول الله يتجهز للحج، وقد أمر الناس بالجهاز له!
زينب: نعم! ... رأيتُ الناس يسوقون الهدْي!
عائشة (باكية)**:** اللهم أعني!
زينب: أتبكين!
محمد (يدخل)**:** ما لكِ يا «عائشة»؟
زينب (تنهض)**:** رسول الله!
محمد (لعائشة)**:** لعلك نفستِ؟
عائشة: نعم ... والله لوددتُ أني لم أخرج معكم عامي هذا السفر!
محمد: لا تقولي ذلك، فإنك تقضين كل ما يقضي الحاج ... إلا أنكِ لا تطوفين بالبيت!

المنظر الثاني

(في مكة ... الناس مع النبي عند البيت الحرام.)

عمر (لأبي بكر)**:** ما لك؟ ... ما يحزنك؟
أبو بكر: إن رسول الله قد أرى الناس مناسكهم، وأعلَمهم سنن حجِّهم ...
عمر: وما في ذاك؟

أبو بكر (كالمخاطب لنفسه)**:** أخشى أن تكون «حجة الوداع»!

عمر (يلتفت إلى ناحية النبي)**:** إن رسول الله قام يخطب الناس!

أبو بكر: نعم ... هلمَّ إليه!

(يدنوان من النبي.)

محمد (يخطب)**:** أيها الناس! ... اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا!

أيها الناس! ... إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم؛ كحرمة يومكم هذا؛ وكحرمة شهركم هذا ... وإنكم ستلقَون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلَّغتُ؛ فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رِبًا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلَمون ... وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع.

أما بعد ... أيها الناس! ... فإن الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضي به؛ مما تحقرون من أعمالكم؛ فاحذروه على دينكم.

أيها الناس! ... إنما النسيء زيادة في الكفر، يُضَل به الذين كفروا، يُحلِّونه عامًا، ويحرمونه عامًا؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا؛ منها أربعةٌ حرُم: ثلاثة متوالية، و«رجب مضر» الذي بين «جمادى» و«شعبان».

أما بعد ... أيها الناس! ... فإن لكم على نسائكم حقًّا، ولهن عليكم حقًّا؛ لكم عليهن ألا يُوطِئن فرُشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشةٍ مبينة؛ فإن فعلن فإن الله قد أذِن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهَين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عَوان لا يملكْن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس قولي؛ فإني قد بلَّغتُ. وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بينًا، كتاب الله وسنة نبيه ... أيها الناس! ... اسمعوا قولي واعقلوه! ... تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة؛ فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طِيب نفس منه؛ فلا تظلمُن أنفسكم، اللهم هل بلَّغتُ؟!

الناس (صائحين)**:** اللهم نعم!

محمد (ناظرًا إلى السماء)**:** اللهم اشهد!

المنظر الثالث

(في المدينة ... عائشة جالسة ليلًا في مسكنها ... تدخل عليها أمها زينب.)

زينب: ما لكِ يا ابنتي؟
عائشة: رسول الله!
زينب: ما به؟
عائشة: وثب من مضجعه في جوف الليل، فلبس ثيابه ثم خرج!
زينب: أين؟
عائشة: لستُ أدري، قد أمرتُ خادمتي «بريرة» أن تتبعه.

(بريرة تدخل.)

بريرة: مولاتي!
عائشة: خبِّريني!
بريرة: تبعتُ رسول الله، فرأيته قد انطلق ومعه مولاه «أبو رافع» إلى الخلاء!
عائشة: الخلاء؟!

المنظر الرابع

(النبي وأبو رافع أمام المقابر بالبقيع.)

أبو رافع: أين يا رسول الله في جوف الليل؟
محمد: يا «أبا رافع»! ... إني قد أُمِرتُ أن أستغفر لأهل هذا «البقيع»!
أبو رافع (كالمخاطب لنفسه)**:** عجبًا!
محمد (متجهًا إلى القبور)**:** السلام عليكم يا أهل المقابر! ... ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلَت الفتن كقِطَع الليل المظلم يتبع آخرُها أوَّلها؛ الآخرة شرٌّ من الأولى!
أبو رافع (كالمخاطب لنفسه)**:** أهو وداع من الدنيا؟!
محمد (يلتفت إلى أبي رافع)**:** يا «أبا رافع»! ... إني قد أوتيتُ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة!

أبو رافع (مبادرًا): بأبي وأمي، فخُذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة!

محمد: لا ... والله يا «أبا رافع» لقد اخترتُ لقاء ربي والجنة!

أبو رافع (في حزن كالمخاطب لنفسه): لقد اخترتَ فراقنا!

محمد (متجهًا إلى المقابر): السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين، إيانا وإياكم ما توعدون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ... اللهم اغفر لأهل «البقيع»! ... اللهم اغفر لأهل «البقيع»!

المنظر الخامس

(في مسكن عائشة، وهي جالسة واضعة يدها على رأسها.)

بريرة (جالسة إلى جوار عائشة): ألا ترقدين؟

عائشة: إني أجد صداعًا في رأسي!

بريرة: لقد سهرتُ الليل في انتظار أوبة رسول الله!

عائشة: لو أنكِ عرفتِ أين ذهب يا «بريرة»!

بريرة: لا تجزعي! ... لعلَّه أُمِر بشيء! ... هذا رسول الله قد أقبَل!

(تنهض لدخول النبي ... وتذهب.)

محمد (يدخل معصوب الرأس): ما لكِ يا «عائشة»؟

عائشة (واضعة يدها على رأسها): وا رأساه!

محمد (في توجع): بل أنا والله يا «عائشة» وا رأساه!

عائشة (تنهض إليه في الحال): ما بك يا رسول الله؟

محمد (ينظر إليها طويلًا): ما ضركِ لو متِّ قبلي، فقمتُ عليكِ وكفنتكِ وصليتُ عليكِ ودفنتُكِ؟!

عائشة: كأني بك والله تحب موتي! ... ولو كان ذلك ... لرجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيه ببعض نسائك!

محمد (يبتسم): إنك غَيرَى!

(يبدو على النبي التعب.)

عائشة (يغشاها قلق): ما بك؟

محمد: آه!

عائشة (في جزع)**:** اجلس يا رسول الله على فراشك!

محمد (يجلس متوجعًا)**:** ما زلتُ أجد من الأكلة التي أكلتُها «يوم خيبر» عدادًا حتى كأن هذا أوان انقطاع أبهَري!

عائشة (في جزع)**:** لا، يا رسول الله، لم يأنِ الأوان!

محمد: إني أشتكي ولا أستطيع أن أدور على نسائي فأرسلي إليهن! ... فإن شئن أذِنَّ لي أُمرَّض عندكِ!

عائشة (وهي مطرقة)**:** نعم!

(تدخل فاطمة بنت النبي جزعة.)

فاطمة: ما بك يا رسول الله؟ ... قد أخبرَتني «بريرة» أنك عدتَ عاصبًا رأسك!

محمد: مرحبًا يا بنتي!

فاطمة: أبَتِ! ... ما لك؟

محمد (يدعوها ويسارها)**:** لا أظن إلا أجلي قد حضر!

فاطمة (تبكي)**:** أبتاه!

محمد (همسًا)**:** لا تبكي، فإنك أول أهلي بي لحوقًا!

بريرة (تدخل)**:** قد دعا «بلال» إلى الصلاة!

محمد: أوَصلى الناس؟

بريرة: لا! ... هم ينتظرونك يا رسول الله!

محمد (ينهض)**:** ضعوا لي ماءً في المخضب! ... آه!

(ينوء مغشيًّا عليه.)

فاطمة (تسرع إليه)**:** إنه ينوء!

عائشة (صائحة مسرعة إليه)**:** أدركوني! ... قد أُغمِي عليه!

(بريرة تهرع في أثر مولاتها جزعة.)

محمد (يفيق)**:** أصلى الناس؟

عائشة: لا تتركْ فراشك يا رسول الله! ... مُر مَن يصلي بالناس!

محمد (في صوتٍ ضعيف)**:** مرُوا «أبا بكر» فليصلِّ بالناس!

(تسرع بريرة بالخروج صادعة بالأمر.)

عائشة (على رأس النبي)**:** يا رسول الله! ... إن «أبا بكر» رجلٌ رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن!

محمد: مرُوه فليصلِّ بالناس!

عائشة (همسًا لفاطمة)**:** كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي ... إن الناس لن يجيبوا رجلًا قام مقام رسول الله أبدًا، وإنهم سيتشاءمون به!

(يرتفع صوت عمر في المسجد ...)

عمر (من الخارج)**:** الله أكبر! ... الله أكبر!

محمد (يتحرك)**:** صوت من هذا؟

فاطمة: هذا «عمر بن الخطاب»!

محمد: لا، لا، يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون ... أين «أبو بكر»؟ ... أين «أبو بكر»؟

عائشة: لا ريب أنه غائب!

محمد (يحاول النهوض)**:** ضعوا لي ماء، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم!

المنظر السادس

(في المسجد ... الناس في هرج وقد انتقضَت صفوفهم ...)

عمر (لبلال)**:** ويحك! ... ماذا صنعتَ بي يا «بلال»؟ ... والله ما ظننتُ حين أمرتَني، إلا أن رسول الله أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليتُ بالناس!

بلال: والله ما أمرني رسول الله بذلك، ولكني حين لم أرَ «أبا بكر» رأيتُك أحق من حضر بالصلاة بالناس!

عمر (يلتفت)**:** هذا «أبو بكر» ... هلمَّ إلى الصلاة!

(أبو بكر يدخل مسرعًا، ويصلي بالناس فتنتظم الصفوف خلفه.)

أبو بكر: الله أكبر!

(يظهر النبي عاصبًا رأسه بخرقة ويستند إلى بابه اللافظ في المسجد، فيراه المسلمون فتبدو منهم حركة افتتان وفرحٍ به.)

محمد (يبتسم لفرحهم، ويشير إليهم هامسًا)**:** اثبتوا على صلاتكم!

(أبو بكر يشعر بالنبي فينكص عن مصلَّاه)

(محمد يدفع في ظهره برفق.)

محمد: صلِّ بالناس!

(ثم يجلس إلى يمين أبي بكر ويصلي قاعدًا.)

الناس (لا تتمالك بعد ختام الصلاة أن تصيح فرحًا)**:** رسول الله! رسول الله قد برأ ... هذا رسول الله!

(بين المصلين أنس بن مالك ينظر إلى النبي، ويهمس لمن في جواره ...)

أنس: انظر إلى وجهه! ... كأنه ورقة مصحف!

محمد (يتحامل ويعتلي المنبر، معتمدًا على ذراعَي أبي بكر وعمر)**:** اللهم اغفر لأصحاب «أحد»! ... أيها الناس! ... ألا من كنتُ جلدتُ له ظهرًا؛ فهذا ظهري فليستقِد منه، ومن كنتُ شتمتُ له عرضًا، فهذا عرضي فليستقِد منه، ومن أخذتُ له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قِبَلي فإنها ليست من شأني ... ألا وإن أحبَّكم إليَّ مَن أخذ مني حقًّا إن كان له، أو حلَّلني فلقيتُ ربي وأنا طيب النفس!

أحد الناس (ينهض)**:** ... لي عليك ثلاثة دراهم!

(يشير النبي فيُؤتَى بالمال من مسكنه ويعطي الرجل.)

محمد (يمضي في خطبته)**:** أيها الناس! ... إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله!

أبو بكر (يفهم ويبكي)**:** بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا!

محمد: على رِسلِك يا «أبا بكر»! ... انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدُّوها إلا بيت «أبي بكر»؛ فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل في الصحبة عندي يدًا منه، ولو كنتُ متخذًا خليلًا لاتخذتُ «أبا بكر» خليلًا، ولكن أخوَّة الإسلام!

المنظر السابع

(في مسكن عائشة ... النبي على فراش الموت، ونساؤه خلف ستارٍ يحجبهن عن ذويه وأصحابه من الرجال.)

عمر (يدخل ويهمس لعلي والعباس بن عبد المطلب)**:** الناس يسألون: كيف أصبح رسول الله؟

علي (همسًا)**:** أصبح بحمد الله بارئًا!

العباس (ينظر إلى وجه النبي ويهمس)**:** أحلف بالله لقد عرفتُ الموت في وجه رسول الله؛ كما كنتُ أعرفه في وجوه بني «عبد المطلب»!

أبو بكر (يلمس النبي)**:** يا رسول الله، إنك لتُوعَك وعكًا شديدًا!

محمد (في صوتٍ ضعيف متعب)**:** أجل ... إني أُوعَك كما يُوعَك رجُلان منكم!

أبو بكر: إن لك لأجرَين!

محمد: نعم ... والذي نفسي بيده، ما على الأرض مسلم يصيبه أذًى من مرضٍ فما سواه، إلا حطَّ الله به عنه خطاياه، كما تحطُّ الشجرة ورقها!

(يُسمَع صوت لغط وبكاء في المسجد ...)

أبو بكر (يهمس لعلي)**:** ما هذا الصوت في المسجد؟

علي (همسًا)**:** أخشى أن يكون «العباس» قد خرج يخبر الناس!

محمد (يشير إلى الستار الذي بين المسكن والمسجد)**:** من هؤلاء؟

علي: هذه الأنصار في المسجد، نساؤها ورجالها، يبكون عليك!

محمد: وما يبكيهم؟

علي (في تردد وصوت خافت)**:** يخافون أن تموت!

محمد: أهريقوا عليَّ سبع قرَب من آبار شتَّى ... ثم ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده!

عمر (لمن حوله همسًا)**:** إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله!

أبو بكر: بل قربوا يكتب لكم رسول الله!

علي: كلا ... الرأي ما قال «عمر»!

(يشتد اللغط بين الرجال ...)

محمد (يضيق بهم)**:** قوموا عني! ... قوموا عني!
أبو بكر: لقد أثقلْنا على النبي في وجعه ... هلمُّوا بنا!

(يذهب الرجال ... وتخرج عائشة والنساء من خلف الستر.)

عائشة: يا رسول الله! إنك لتجزع وتضجر، لو فعلَته امرأةٌ منا عجبتَ منها!
محمد: إن المؤمن يُشدَد عليه؛ ليكون كفارة لخطاياه!

(فاطمة تبكي.)

محمد: لا تبكي يا بُنية ... قولي إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوِّضة!
فاطمة: ومنك يا رسول الله؟
محمد: ومني!
عائشة (لفاطمة)**:** إنه يُوعَك من الحُمى!
محمد (ينهض قليلًا)**:** يا عائشة؟ ... ما فعلَت تلك الذُّهب؟
عائشة: أي ذهب؟
محمد: الدنانير الستة التي عندي!
عائشة: هي عندي!
محمد: ما ظن «محمد» بربه أن لو لقي الله وهذه عنده! ... أنفقيها كلها صدقة ... إن النبي لا يورث!
عائشة: سأنفقها!
محمد: اللهم توفَّني فقيرًا، ولا توفَّني غنيًّا، واحشرني في زمرة المساكين! ... (يرقد) الآن استرحتُ!
عائشة (تضع رأس النبي في حجرها)**:** يا رسول الله! ... اسأل الله لك الشفاء والعافية!
محمد (يشخص ببصره إلى السماء كالمخاطب لنفسه)**:** بل الرفيق الأعلى!
عائشة (تسقط من عينها قطرة دمع بلا شهيق)**:** خُيِّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق!

محمد (في صوتٍ خفيض)**:** قدَحًا من ماء!

عائشة (للنساء)**:** أسرعن إليَّ بقدَح من ماء!

(يُحضرن قدح الماء.)

محمد (يبلل يده ويمسح وجهه)**:** اللهم أعني على سكرات الموت!

فاطمة: وا كرب أبتاه!

محمد: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، ادنُ مني ... ادنُ يا جبريل! ... ادنُ مني يا جبريل! ... ادنُ مني يا جبريل!

(يرى جبريل قد هبط عليه.)

جبريل: يا أحمد! ... إن الله أرسلني إليك إكرامًا لك، وتفضيلًا لك، وخاصة لك ... يسألك عمَّا هو أعلم به منك، ويقول لك كيف تجدك؟

محمد (شاخص العينين يتكلم من قلبه، دون أن يبدو لمن حوله شيء)**:** أجدُني يا «جبريل» مغمومًا، وأجدني يا «جبريل» مكروبًا!

جبريل (يشير إلى ملك خلفه)**:** يا «أحمد»! ... هذا ملك الموت، يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمي كان قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك!

محمد: ايذن له!

ملك الموت: يا رسول الله يا «أحمد»! ... إن الله أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، وإن أمرتَني أن أقبض نفسك قبضتُها، وإن أمرتَني أن أتركها تركتُها!

محمد: وتفعل يا ملك الموت؟

ملك الموت: بذلك أُمِرتُ أن أطيعك في كل ما أمرتَني!

جبريل: يا «أحمد»! ... إن الله قد اشتاق إليك!

محمد: امضِ يا ملك الموت لما أُمِرتَ به!

جبريل: السلام عليك يا رسول الله! ... اليوم آخر عهدي بهبوط الأرض!

(يرتفع الملكان ويتركان محمدًا جثةً هامدة.)

عائشة (ترى النبي قد ثقل في حجرها فتضعه على الفراش وتغطي وجهه ببرده وتصيح)**:** أدرِكوني! ... أدرِكوني!

النساء (في جزع وروع)**:** ماذا؟!

عائشة (تضرب وجهها)**:** وا ثكلاه! ... مات رسول الله! ... مات رسول الله!

فاطمة: أبتاه!

النساء: وا ثكلاه!

فاطمة (ترى الجثة فتصيح)**:** أبتاه! ... يا أبتاه! ... أجاب ربًّا دعاه ... يا أبتاه! ... جنة الفردوس مأواه، أبتاه! ... إلى «جبريل» ننعاه، يا أبتاه! ... مِن ربه ما أدناه!

عائشة (في بكاء وشهيق)**:** رسول الله قد مات! ... وا حر قلباه! ... وا مصيبتاه! الآن قد انقطع عنا خبر السماء!

بريرة (تدخل مسرعة)**:** إن «عمر» و«العباس»، ورجالًا معهما يستأذنون في الدخول على النبي!

عائشة (للنساء)**:** احتجبن خلف الستر!

(يحتجب النساء في الحال وهن يبكين.)

عمر (يدخل ويسرع إلى محمد ويرفع الغطاء عن وجهه)**:** وا غشياه! ... ما أشد غشي رسول الله!

(أحد الرجال، وهو المغيرة ينظر في وجه النبي.)

المغيرة: يا «عمر» مات والله رسول الله!

عمر (في غضب)**:** كذبتَ! ... ما مات رسول الله، ولكنك رجل تحوشك فتنة؛ ولن يموت رسول الله حتى يُفني المنافقين!

(العباس ينظر في وجه النبي، ولا يُجيب يخرج عمر والعباس والرجال.)

الناس (في الخارج)**:** أمات النبي؟ ... أمات النبي؟

عمر (يصيح في الخارج)**:** أيها الناس! ... لا أسمعن أحدًا يقول إن محمدًا قد مات، ولكنه أُرسِل إليه كما أُرسِل إلى «موسى بن عمران» فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن تُقطَع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!

الناس (في الخارج)**:** لا تدفنوه! ... إنه لم يمت!

رجل (في الخارج)**:** إن رسول الله قد رُفِع؛ كما رُفِع «عيسى ابن مريم» ولَيرجعَن!

العباس (في الخارج)**:** هل عند أحد منكم عهد من رسول الله في وفاته فيحدثناه؟

الناس (في الخارج)**:** لا!

العباس (في الخارج)**:** هل عندك يا «عمر» من ذلك!

عمر (في الخارج)**:** لا!

العباس (في الخارج)**:** اشهدوا أن أحدًا لا يشهد على نبي الله بعهدٍ عهده إليه بعد وفاته إلا كذاب، والله الذي لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله الموت، وإنه ليأسَن كما يأسَن البشر، فادفنوا صاحبكم، أيُميتُ الله أحدكم إماتة، ويُميتُه إماتتَين؟ ... هو أكرم على الله من ذلك، إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجًا واضحًا، أحلَّ الحلال وحرَّم الحرام، ونكح وطلَّق، وحارب وسالم، وما كان راعي غنم يتبع بها رءوس الجبال بأنصبَ ولا أدأبَ من رسول الله فيكم!

النساء (خلف الستر)**:** أمات رسول الله أم لم يمُت؟

فاطمة (تدنو من الجثة، وتتأمل وجه النبي طويلًا، وتجهش بالبكاء.)**:** قد تُوفِّي رسول الله!

(أبو بكر يدخل مسرعًا، ويتجه إلى الجثة، ويرفع الغطاء عن النبي المسجى ويقبِّله ويبكي.)

أبو بكر: بأبي أنت وأمي، طبتَ حيًّا وميتًا! ... أمَّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتَها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا!

(يرد البُرد على وجه النبي ويخرج.)

عمر (في الخارج)**:** أيها الناس! ... والله ما مات رسول الله، إنما عُرج بروحه كما عُرج بروح «موسى»!

أبو بكر (في الخارج)**:** على رسلك يا «عمر»! ... أنصِت ...

عمر (مستطردًا)**:** والله لا يموت رسول الله حتى تُقطَّع أيدي أقوام وألسنتُهم!

أبو بكر (في الخارج صائحًا)**:** أيها الناس! ... ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾، أما بعد ... فمن كان منكم يعبد «محمدًا» فإن «محمدًا» قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!

الناس (في الخارج يبكون)**:** مات رسول الله!

المنظر الثامن

(النبي مسجى على سريره، يدخل الناس عليه زمرًا زمرًا، يصلون عليه ويخرجون، بغير أن يؤمهم إمام.)

(أبو بكر وعمر وعلي في الصف الأول أمام جثة النبي مطرقين.)

علي (همسًا للجثة والعبرات في عينيه)**:** أنت إمامنا حيًّا وميتًا!

أبو بكر وعمر (للجثمان)**:** السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته! ... اللهم إنا نُشهد أن قد بلَّغ ما أُنزِل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، حتى أعز الله دينه، وتمَّت كلماته ... فآمن به وحده لا شريك له، فاجعلْنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أُنزِل إليه وثبِّتنا بعده، واجمع بيننا وبينه؛ فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا ... لا نبتغي بالإيمان بدلًا، ولا نشتري به ثمنًا أبدًا!

الناس (في صوتٍ واحد)**:** آمين! ... آمين!


هنداوي